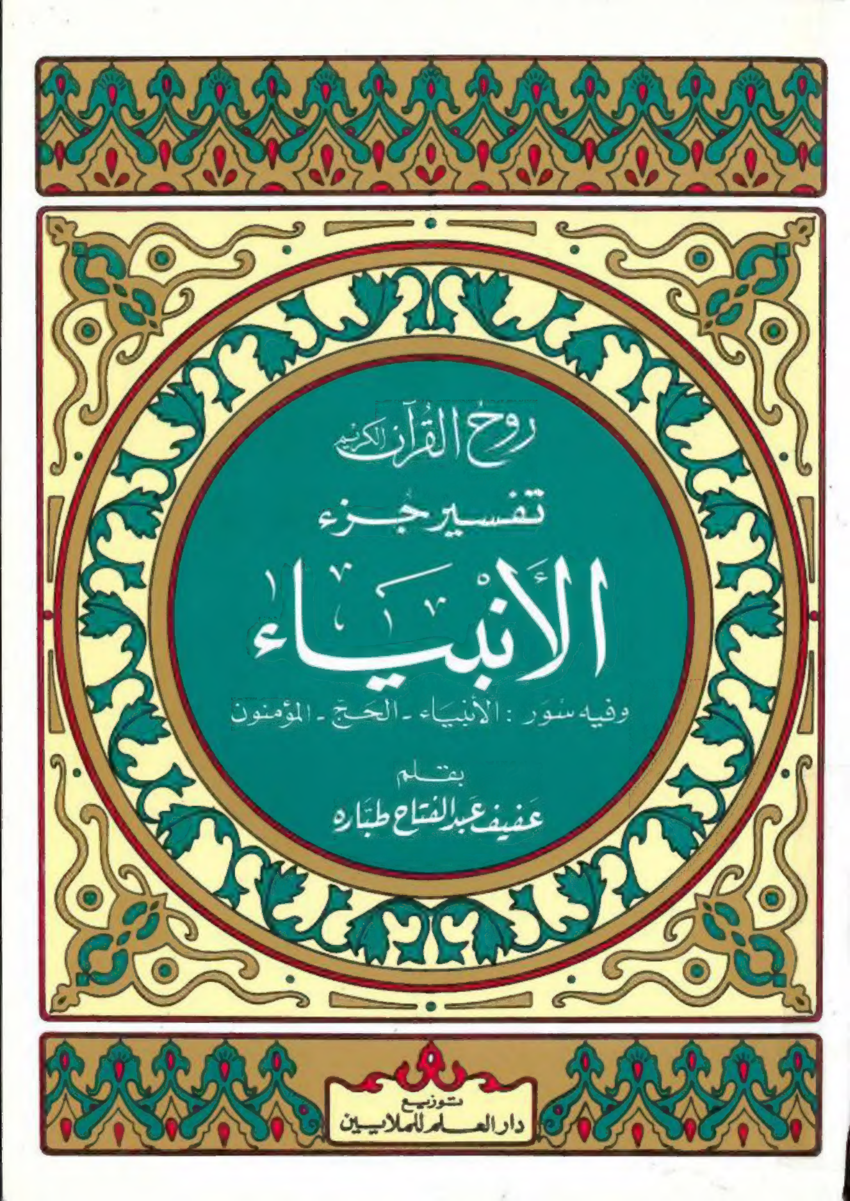

روح القرآن الكريم
تفسير جزء
الأنبياء
وفيه سور : الأنبياء - الحج - المؤمنون
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسر أجزاء القرآن مفردة أو مزدوجة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن وهذا الجزء (السابع عشر) يبتدىء بسورة الأنبياء وينتهي بسورة الحج.

ولما كنا قد فسّرنا سابقاً سورة النور في كتاب مستقل بقيت سورة المؤمنون التي هي من ضمن الجزء (الثامن عشر) بدون تفسير لذا ألحقنا تفسيرها في هذا الجزء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم (جزء عمّ) و (جزء تبارك) إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها.

روح القرآن الكريم

تفسير



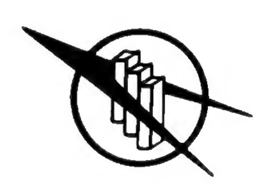
بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧١
برقياً: ملاييين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى
كانون الاول ١٩٩٦



سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

تعريف بسورة الأنبياء

سميت هذه السورة بسورة الأنبياء لأن الله ذكر فيها طائفة من قصص الأنبياء وجهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله، وقد جاء ذكرهم في استعراض سريع يطول أحياناً في قصة إبراهيم مع قومه ودعوته لهم إلى ترك عبادة الأصنام وتحطيمه لها والحكم عليه بالإحراق ونجاته من ذلك، وقصة نوح، وقصة داود وسليمان وحكمهما في قضية الزرع، كما يأتي ذكر الأنبياء الآخرين بإيجاز وهم موسى وهارون ولوط وإسماعيل وإدريس وزكريا ويحيى وعيسى وذو الكفل ويونس وأيوب عليهم السلام.

تبتدىء السورة بالحديث عن القيامة وما يكون فيها من الحساب ومجازاة الناس على أعمالهم بينما هم في غفلة عن هذا اليوم، منغمسين في الشهوات والمعاصي لا يستعدون لهذا اليوم ـ الذي يلاقون فيه ربهم ـ بالإيمان والعمل الصالح.

وتتحدث السورة عن تهجم الكفار على القرآن والطعن فيه والسخرية من نبوة محمد وتكذيبه، مع تهديد الكفار وإنذارهم بالهلاك كما حصل للأمم السابقة حين كذَّبت رسل الله إليها مبينة انتصار الحق على الباطل.

وتذكر السورة البراهين والأدلة الدامغة على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة مع لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله التي أبدعت هذا الكون من سمائه وأرضه الأمر الذي يشهد بوجوده ووحدانيته وأن كل شيء بنظام دقيق فلم يخلق الله شيئاً لهواً وعبثاً، بل لغاية جليلة.

وفي السورة بيان عن عدم خلود أيّ إنسان على وجه الأرض، وأن الإنسان خلقه الله لامتحانه بصنوف الابتلاء ليظهر مدى صدقه في إيمانه وليثاب على صبره في الآخرة.

وتذكر السورة بعض أمارات يوم القيامة ومصير المؤمنين في نعيم الجنة ومصير الكافرين في عذاب النار حيث لا يجدون نصيراً يدفع عنهم العذاب.

وتختتم السورة بوعد المؤمنين الصالحين بالاستخلاف في الأرض وبيان أن رسول الله محمداً أرسله الله رحمة للناس جميعاً مع إنذار من يعرض عن هديه.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ
مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ
تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾

شرح المفردات

ذِكْرٍ: الذِّكر هو القرآن.
مُحْدَثٍ: جديد في إنزاله بأعتبار الألفاظ المنزلة على محمد ﷺ.
لاهية قلوبهم: غافلة قلوبهم عن معاني القرآن.
أسَرُّوا النجوى: بالغوا في إخفاء الكلام بينهم.

غفلة المشركين عن الآخرة

يستهل الله هذه السورة ببيان غفلة الناس عن يوم الحساب في الآخرة:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم﴾ أي اقترب للناس وقت حسابهم على أعمالهم يوم القيامة، ولكن ما المراد بهذا القرب وقد مضى زمن طويل على نزول القرآن ولم تأتِ ساعة القيامة، الجواب عن ذلك هو أن كل آتٍ قَريب، كما أن استشعار الناس بقرب يوم

الحساب يكون داعياً لتلافي الذنوب والتحرُّز منها. هذا وإن القيامة قريبة لما مضى من الزمان فما بقي من الدنيا أقل مما مضى، ومن مات فقد قامت قيامته. وبعد الموت قد تمضي ألوف سنين لا يحس بها الميت إلى أن يبعثه الله يوم القيامة حياً للحساب والمجازاة على أعماله، ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ والناس في حياتهم ساهون غافلون، مُعرِضُون عن التأهُّب ليوم الحساب بالعمل الصالح والكف عن الفواحش والمنكرات.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلاّ استَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لاهِيَةً قُلُوبُهُم﴾.

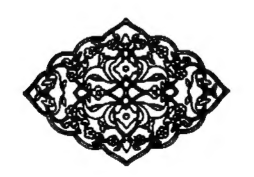
الذكر: هو القرآن. ومحدث: أي جديد بألفاظه المنزلة على رسول الله محمد وقتاً بعد وقت، وآية بعد آية، وسورة بعد سورة للتذكير والموعظة. والمعنى: ما يأتي أولئك الكفار من قرآنٍ جديدٍ إنزالُه إلاّ استمعوه وهم يلعبون، لاهون عن مواعظه ساخرون منه.

هذا كان حال المشركين في عهد النبيّ ﷺ وهذا حال كثير من المسلمين اليوم، حيث أعرضوا عن التأمل في القرآن والعمل بمواعظه وأحكامه وحيث أصبح القرآن بالنسبة لهم للتبرك وتلاوته على الأموات، والتغني به بالأنغام المعهودة أو قراءته في المآذن بواسطة مكبرات الصوت ـ وهذا من غير السُّنَّة ـ والناس لاهون عنه بتجارتهم ولعبهم وأحاديثهم، بينما أنزل الله القرآن للتأمل والتفكّر بآياته والاتعاظ بها والعمل بموجبها، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلْنَاهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبّروا آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أولوا الألْبَاب﴾ [ص: ٢٩]. وبجانب لهو الكفار عن الاستماع إلى القرآن فهم أيضاً ﴿وأَسَرُّوا النَّجْوى الَّذِينَ ظلموا﴾ والنجوى: اسم من التناجي، والتناجي لا يكون إلا سرّاً، فمعنى إسرار النجوى هو مبالغة كفار مكة الظالمين في إخفاء تآمرهم على النبي وعلى القرآن، قائلين فيما بينهم: ﴿هَلْ هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ أي هل محمد الذي يزعم أنه رسول من الله إليكم إلاّ بشر مثلكم لا يتميز عليكم بشيء، قالوا ذلك على سبيل التعجب والإنكار لأنهم يعتقدون أن رسول الله لا يكون إلاّ ملكاً من الملائكة وهذا جهل منهم وهروب من الواقع، فلو أرسل الله إليهم ملكاً من الملائكة لما عُلِمَ كونه نبياً لأن الملائكة لا ترى

ولما كان له تأثير على الناس ولقد اقتضت حكمة الله أن يكون رسله إلى الخلق من البشر أنفسهم فيكون سلوكهم طبقاً للشريعة التي ينزلها الله عليهم حتى يمكن الاقتداء بهم، كما أنهم يتعرضون للابتلاء بأنواع البلاء والأذى من قومهم، فيكون صبرهم وجهادهم هو لتعليم البشر كيف يتسامون فوق الآلام وكيف يصبرون على المحن.

ويتابع الكفار قولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي إذا كان محمد بشراً مثلكم وكان الذي جاء به سحراً فكيف تصدقون محمداً وتتبعونه وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر.

فالعرب كانوا أرباب الفصاحة ولهم سليقة خاصة في تذوق الكلام البليغ ولقد بهرهم القرآن عندما تُلي عليهم، واستحوذ على مشاعرهم بما يحتويه من الكلام البليغ الذي يفوق كلام فصحائهم في بلاغته، فبعضهم آمن والبعض الآخر أعرض عن الإيمان تكبراً وتعنتاً فادّعوا بأن ما جاء به النبيّ ﷺ من القرآن هو سحر تمويهاً على ضعفائهم ليصرفوهم عن الإيمان به ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي قال النبيّ لهم وقد أطلعه الله على حديثهم الذي أسروه: ربي يعلم كل ما يقال في السماء والأرض لا تخفى عليه خافية، وهو السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وهذا يتضمن الوعيد لهم.



بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا
جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ
فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ
ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

شرح المفردات

أضغاث أحلام: أخلاط أحلام رآها في منامه.
افتراه: اختلقه ونسبه إلى الله.
بآية: بمعجزة.
أهل الذِّكْر: العلماء بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب.
ذِكْرُكم: شرفكم.

تهجم الكفار على القرآن والطعن فيه

ثم يخبرنا الله عن تخبط الكفار في ضلالهم وترددهم في وصف القرآن: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَـأْتِنَا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأَوَّلون﴾ أي بل قالوا: إن ما جاء به من القرآن هو أخلاط منامات رآها في منامه، بل اختلق القرآن ونسبه كذباً إلى الله، بل إن محمداً هو شاعر وأن ما جاء به من القرآن هو شعر، فليأتنا بمعجزة مادية دالة على صدقه كما أُرسل الأنبياء الأولون مؤيدون بالمعجزات.

أما ادعاؤهم بأن محمداً هو شاعر فهو مغالطة منهم فقد كانوا يعلمون أن النبيّ ﷺ لم ينطق بالشعر قبل النبوة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نظم القرآن ليس شعراً لأنه لم يجر على الأوزان والقوافي والخيال التي جرى عليه الشعراء، ولم يشارك في الموضوعات التي ألفها شعراء العرب في قصائدهم. أما طلبهم معجزة من النبي كما جاءت على يد الرسل السابقين، فقد أيد الله رسوله محمداً ﷺ بالقرآن المعجز للبشر

بألفاظه ومعانيه ونظمه فقد تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة منه وهم الحريصون على إبطال دعوة النبيّ ﷺ فلما عجزوا عن معارضته دل على أن القرآن معجزة.

ثم يبيّن القرآن مدى تعنتهم وإصرارهم على الكفر:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لم تؤمن أمة من الأمم قبل كفار مكة بعد أن طلبوا من أنبيائهم المعجزات وعاهدوهم أن يؤمنوا عند مجيئها، فلما جاءتهم المعجزات نكثوا العهد، وخالفوا أنبياءهم فأهلكهم الله. أفهؤلاء الكفار من قومك يا محمد يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سألوا، وفي ذلك تنبيه بأن الله لو أجابهم إلى ما طلبوا من المعجزات وظلوا على كفرهم لأهلكم الله، فعدم تلبية رغباتهم إنما هو لسلامتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى الناس من الرسل إلاّ رجالاً من البشر نوحي إليهم شرائعنا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم في شك من كون جميع الرسل بشراً فاسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يأكلون الطَّعَامَ﴾ وما جعلنا رسلنا إلى الناس ذات أجساد تخالف أجساد البشر يعيشون بلا طعام ﴿وَمَا كانُوا خَالِدِينَ﴾ وما كانوا باقين مخلدين في الدنيا بل أدركهم الموت كما أدرك غيرهم ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُم وَمَنْ نَشَاءُ﴾ أي ثم صدقناهم في الوعد بالغلبة على أعدائهم فأنجيناهم وأنجينا معهم من أردنا نجاتهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدود في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُم كِتَاباً﴾ أي ولقد أنزلنا إليكم القرآن ﴿فيه ذِكْرُكُمْ﴾ ومعنى الذكر: الشرف، أي فيه شرف لكم. ووصف الله القرآن في آية أخرى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي وإن القرآن لشرف لك يا محمد ولقومك ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتدبرون ما فيه من المواعظ والأحكام فتؤمنوا به وتعملوا بهديه.

هذه الآية من الأنباء الغيبية، فالقرآن كان سبباً لشرف العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فلم يكن لهم من قبله ذِكْرٌ ولا مكانة بين الأمم، ولم يكن لهم قبل القرآن ما يقدمونه للإنسانية من فضائل ومثل عليا، بل كانوا في حالة من الفوضى والظلم

الاجتماعي والتناحر لأوهى الأسباب ولكن بعد نزول القرآن والعمل بأحكامه والسير على هديه تبدلت حالة العرب فتوحدت قلوبهم وصلحت أحوالهم وشاع العدل في مجتمعهم فأصبحوا أمة موحدة ثم لم يلبثوا أن بسطوا سلطانهم على الأمم المجاورة لهم ونشروا فيها هدي القرآن فسعدوا جميعاً بما فيه من دعوة إلى الحق والخير والإحسان. وإن الإنسانية جمعاء لم تعرف حضارة العرب إلاّ من خلال شريعتهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمدة من ذلك الكتاب العظيم.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ
أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ
دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ
بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

شرح المفردات

كم قصمنا: كثيراً ما أهلكنا

بأسنا: عذابنا.

حصيداً: هلكى كالنبات المحصود بالمناجل.

خامدين: ميتين كالنار التي سكن لهبها.

من لدنا: من عندنا.

فيدمغه: يذهبه ويهلكه.

زاهق: هالك وزائل.

يستحسرون: لا يكلون ولا يتعبون.

لا يفترون: لا يضعفون.

إهلاك القرى الظالمة

وبعد أن بين الله اعتراضات المشركين على نبوة محمد حذرهم من العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم إذا استمروا على كفرهم.

﴿وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كم: هي الخبرية التي تفيد الكثرة. والقرية المراد بها أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم. والمعنى: وكثيراً ما أهلكنا من أهل قرية كانت ظالمة. والقصم في اللغة كسر الشيء حتى تنفصل أجزاؤه، وفي هذا اللفظ دلالة على قوة الغضب وشدة السخط من الله ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ وأوجدنا بعد إهلاكهم قوماً آخرين مكانهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فلما عاينوا عذابنا وأحسوا به ﴿إذا هُمْ منها يَرْكُضُونَ﴾ والضمير في منها يعود إلى القرية. والركض في اللغة: الهرب والفرار، يقال: رَكَضَ الدَّابَّةَ: أي ضرب جنبيها برجليه لتسرع في عدْوها، والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يحثونها في الإسراع هاربين منهزمين ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة على سبيل التهكم والاستهزاء: لا تهربوا من العذاب الذي نزل بكم، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من الرفاهية والبطر بالنعمة، وارجعوا إلى مساكنكم التي كنتم تتنعمون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ لعل أحداً يسألكم عما نزل بكم من العقوبة فتخبروا به ﴿قالوا: يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي قالوا: يا هلاكنا إنا كنا ظالمين بالشرك بالله وتكذيبنا لرسله، وهذا الاعتراف ينبىء عن ندمهم حين لا ينفع الندم ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ فما زالت دعوتهم على أنفسهم بالهلاك يرددونها خلاصاً من العذاب الأليم الذي نزل بهم ﴿حتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ شبه الله استئصالهم وإهلاكهم بحصيد الزرع الذي انعدمت فيه قابلية النمو والحياة وضربه الجفاف. وشبه موتهم بخمود النار التي اطفئت وانعدم تأثيرها.

وبعد أن بين القرآن إهلاك أهل القرى لأجل تكذيبهم أنبيائهم أتبع ذلك بما يدل على أنه فعل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا وأن أفعال الله قائمة على الحكمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ أي وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما من عناصر ومخلوقات بهذا النظام المحكم والصنع البديع عبثاً وباطلاً للَّعب بل جعلناها قائمة على قواعد الحكمة والغايات الجليلة ﴿لَوْ أَرَدْنَا أن نَتَّخِذَ لهواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ اللهو: هو الترويح عن النفس بما تتشاغل به عن الجد، أي لو أردنا اتخاذ اللهو لكان ذلك من جهة إرادتنا وما تحت مُلكنا ولكن ذلك مستحيل استحالة ذاتية منا ومنافٍ للحكمة فلم نفعله. وفُسِّر اللهو هنا بالمرأة والولد.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على البَاطِلِ فَيَدْمَغُه فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ بل أمرنا الذي يليق بنا أن نورد الحق بشدة على الباطل فيدحضه ويُذهبه فإذا هو زائل وهالك.

وفي الآية استعارة تشهد ببلاغة القرآن. فالقذف الذي هو الرمي الشديد بجرم صلب استعير ليصور القوة التي يهبط بها الحق على الباطل، واستعير الدمغ للقضاء على الباطل. والدمغ هو كسر الشيء الرخو وإصابة الدماغ بالضرب حيث يشق غشاءه المؤدي إلى إزهاق الروح ﴿فإذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فإذا هو زائل وهالك. ثم عقب الله على ذلك قوله: ﴿وَلَـكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ولكم يا معشر الكفار العذاب والهلاك من وصفكم ربكم بغير صفته وافترائكم بأنه اتخذ زوجة وولداً.

﴿وَلَـهُ مَنْ في السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله سبحانه جميع من في السموات والأرض من المخلوقات مُلْكاً وخلْقاً وتصرفاً ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ومن عنده من الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله ـ تنزه عن ذلك ـ لا يستكبرون عن عبادته والخضوع له ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يكلون ولا يتعبون ﴿يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ ينزهون الله عن النقص ويمجدونه ليل نهار لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون، ويأتي التسبيح بمعنى الصلاة أي يصلّون للّه الليل والنهار.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ
ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ
فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات:

ينشرون: يحيون الموتى.

هذا ذكر من معي: أي هذا القرآن عظة لأمتي.

وذكر من قبلي: والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي عظة لهم.

مكرمون: مقرّبون عند الله.

مشفقون: خائفون.

تقرير وحدانية الله

ثم تأتي الآيات في بيان وحدانية الله ونفي الشركاء عنه:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، لا ليس الأمر كذلك فقد اتخذوا آلهة من الأصنام لا تتصف بالقدرة على شيء، بل الله وحده هو الذي يحيي ويميت وهو وحده المستحق للعبادة.

ويتابع القرآن فيقدم دليلاً في نهاية الروعة على وحدانية الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي لو كان يتولى أمر السماوات والأرض آلهة شتى ـ كما زعم المشركون ـ غير الله الواحد الأحد الذي هو خالقهما لفسدتا.

فلو تعددت الآلهة لاختلفت أفعالهم باختلاف علومهم وإرادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ويكون لكل إلّه التصرف في المخلوقات على حسب علمه وإرادته، فتتضارب أفعال الآلهة حسب التضارب في علومهم وإرادتهم فيفسد نظام الكون، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة فدل على أن للكون إلّهاً واحداً لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

«إن هذا النظام المحكم المستمر، والاتساق البديع الدائم، والارتباط بين أجزاء العالم العُلويّ والسُّفليّ، والآثار الكونية المترتبة على ذلك ـ لا يمكن أن يصدر إلاّ عن صانع قادر، حكيم مدبِّر، منفرد بالإيجاد والإبداع والتدبير، لا شريك له في فعله، ولا مُعقِّب لحكمه، ولا رادّ لأمره. إذ إن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم في الأفعال، والتصادم في الإرادات، فيختل النظام، ويضطرب الأمر، ويخرب العالَم. ولما كان المشاهد غير ذلك، دلَّ على وحدة الإله المتصرِّف المدبِّر القدير»[1]. ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فتنزيهاً لله وتبرئة له من أن يكون له شريك في الملك أو يكون له ولد كما يصفه بذلك الجاهلون فهو رب العرش العظيم المحيط بالكون. ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي لا يسأل أحد الله عما يفعل فهو الحاكم الذي لا يعترض على حكمه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه، وإنما يسأل الله الناس عن أفعالهم كما جاء في القرآن ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢] ويعقب الزمخشري في تفسيره على ذلك بقوله: إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم أحد عن أفعالهم... تهيباً وإجلالاً مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم، كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم

---

(١) عن تفسير صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين مخلوف.

أوْلى بأن لا يُسئل عن أفعاله، مع ما عُلِم واستقر في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بحكمة ولا يجوز عليه الخطأ. . .

ويتابع القرآن الكلام عن المشركين: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرَّر هذا الإنكار على المشركين باتخاذهم آلهة من غير الله مبالغة في توبيخهم واستعظاماً لكفرهم حيث اتخذوا الأصنام آلهة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾ قل لهم يا محمد ائتوني بالبرهان والدليل على وجود آلهة غير الله. ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ أي هذا الذي جئتكم به من عند الله هو عظة لأمتي ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبلِي﴾ والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي هي عظة لهم ليس في واحد منها أن مع الله إلهاً آخر وإنما فيها الدعوة إلى وحدانية الله. وقد يكون المعنى: هذا القرآن عظة للذين معي من قومي وعظة لأمم الأنبياء قبلي ﴿بل أكثرُهُم لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي أن أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل فهم مستمرون على الإعراض عن توحيد الله واتباع النبيّ ﷺ.

ويذكر القرآن أن رسل الله جميعاً دعوا إلى وحدانية الله وعبادته وحده:

﴿وَمَا أَرْسلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيْهِ أَنَّه لا إلَه إلاَّ أَنا فاعْبُدُونِ﴾ أي وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلاّ نوحي إليه أن لا معبود في السماوات والأرض تصلح له العبادة سواي فأخلصوا لي العبادة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَـهُ﴾ وقالت طائفة من العرب: الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ بل الملائكة والرسل عباد الله مكرمون بتكريمه لهم ومقربون عنده ﴿لا يَسْبِقُونَـهُ بالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً إلاّ بما يقوله لهم ولا يسبق قولهم قوله ﴿وَهُمْ بأمره يعملون﴾ وهم يعملون بما يأمرهم به من الطاعات ولا يخالفونه فيما يأمرهم به ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهم وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم ما بين أيدي ملائكته ما هم فيه قائلون وعاملون، ويعلم من أعمالهم ما خلفوه وراءهم من الأزمان والدهور ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ولا يقومون بالشفاعة إلا لمن علموا أن الله راض عنه ويأذن لهم بالشفاعة له ويقبل شفاعتهم

فيه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ والخشية هي الخوف مع التعظيم، والإشفاق هو الخوف مع الحذر، أي هم خائفون حذرون من أن يعملوا عملاً فيه إغضاب لربهم ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُم إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ ومن يقل من الملائكة أو من الأنبياء إني إله يُعبد من غير الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وهكذا يجزي الله كل من ظلم نفسه فكفر بالله وعبد غيره.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

شرح المفردات

كانتا رتقاً: كانتا ملتصقتين.
ففتقناهما: ففصلناهما.
رواسي: جبالاً ثوابت.
أن تميد بهم: لئلا تتحرك بهم.
فجاجاً سبلا: طرقاً واسعة مسلوكة.
سقفاً محفوظاً: سقفاً للأرض مصوناً من الوقوع والتغير.
وهم عن آياتها: وهم عن علاماتها الدالة على وجود الله ووحدانيته.
معرضون: لا يتفكرون فيها.
يَسْبَحُونَ: يسيرون ويدورون في أفلاكهم.

من مظاهر ربوبية الله في الكون

ثم يعرض القرآن بعض مظاهر ربوبية الله للكون:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي ألم يتفكر

الذين كفروا ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ففصلنا بعضها عن بعض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيّ﴾ وخلقنا من الماء كل مخلوق حيّ ﴿أفلا يُؤْمِنُونَ﴾ أفلا يُصدقون بعد هذه الحقائق بأنه لا إلّه إلاّ الله.

وهنا وقفة قصيرة حيث يقول الله تعالى بأن الأرض والسماوات ﴿كَانَتَا رَتْقاً﴾ والرتق الضم والالتحام، أي كانتا شيئاً واحداً. وهذا ما اعترف به العلم وهناك عدة نظريات في ذلك منها: أن جميع أجرام السماء ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسية والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً في كتلة واحدة، ثم حدث انفجار هائل ناثراً أجزاء هذه المادة في الفضاء في جميع الجهات انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء بما فيها المجموعة الشمسية والأرض وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُما﴾ أي ففصلناهما.

ومما يؤيد هذا فقد اكتشف حتى الآن أن في الشمس ٦٧ عنصراً من عناصر الأرض البالغة نحواً من ٩٢ عنصراً، وسيزيد المستدل عليه من العناصر في الشمس إذا ما ذللت الصعوبات في هذا الشأن، والشمس نجم كسائر نجوم السماء، ومن النجوم والمذنبات والكواكب ـ ومن ضمنها كوكبنا الأرض ـ يتألف الكون. هذا وقد لاحظ العلماء حديثاً أن النيازك والأتربة القمرية التي حصل عليها العلماء من الفضاء الخارجي تحتوي من العناصر ما هو شائع في الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حيّ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدهشت العلماء. فقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، والخلية كما هو معروف عنها: هي وحدة البناء في كل كائن حي على وجه الأرض حيواناً كان أو نباتاً، كما أثبت علم الكيمياء إن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الكائنات الحيوانية ونحوها بما فيها الإنسان طبعاً، كما أن الماء هو العنصر الأساسي لنمو النبات والنبات مصدر حياة الإنسان.

والماء يغطي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض ويبقى سائلاً فترة طويلة من الزمن،

وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض على معدّل ثابت ويصونها من التقلبات العنيفة ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الحياة على الأرض إلى حد كبير.

فهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القرآن وحي إلّهي وعلى صدق نبوة محمد، فالقرآن ابتدأ بعرض هذه الحقائق عن وحدة الكون وسرّ الماء بمخاطبة الذين يكفرون بوجود الله بهذه الدلائل العلمية الدامغة التي تدل على وجوده والتي لم يدرك العرب في الماضي أسرارها بل أدركها العلم اليوم بعد جهود استغرقت أجيالاً في مجالات هذا الكون وهذا ما هدفت إليه هذه الآية القرآنية حينما خُتمت بهذا القول ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يكفي ذلك دليلاً للإيمان برب العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالاً لإرساء الأرض بها وتثبيتها لئلا تضطرب بالناس وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها.

فالله سبحانه جعل الجبال رواسي: أي ذات جذور ممتدة في داخل القشرة الأرضية، وقد تبين أن عمق الجذور يفوق ارتفاع الجبال أربع مرات ونصف المرة فهي كأنها أوتاد، وهذا ما ذكره القرآن ﴿والجِبَال أوتاداً﴾. كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقلّ من كثافة القشرة الأرضية المحيطة بها كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة الأرضية العميقة. بحيث يكون مساوياً في جميع أنحائها فلا تميد أو تتصدع. وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها لمِمَّا يحقق الوضع الذي عليه الأرض ويحفظ توازن الكرة الأرضية. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾ أي وخلقنا في الأرض بين الجبال طرقاً واسعة يسلكها الناس ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم وأمورهم المعيشية.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ أي وخلقنا السماء فوق الأرض كالسقف المرفوع وحفظناها من أن تقع أو أن يقع ما فيها عليهم.

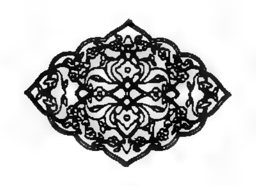
والسماء هي كل ما علانا تبدأ بالغلاف الهوائي الذي يحمي أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء مثل الشهب والنيازك. كما أن الهواء يشكل حاجزاً حول الأرض يمنع

كميات كبيرة من أشعة الشمس من الوصول إلى الأرض وإحراق كل شيء عليها، وفوق الغلاف الهوائي أجرام السماء على أبعاد مختلفة تحتفظ بنظام دوراتها وكيانها وعدم ارتطامها بالكرة الأرضية بقانون الجاذبية. هذا النظام البديع الذي وصف فيه القرآن السماء ﴿سقفاً محفوظاً﴾ يشهد بوجود الله ووحدانيته وقدرته العظيمة ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وهم منصرفون عن النظر والاعتبار بما فيها من الدلائل والعبر الدالة على قدرتنا وحكمتنا ورحمتنا.

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى بعض الظواهر الطبيعية التي تشهد بعظيم قدرة الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي وهو الله سبحانه خلق الليل والنهار والشمس والقمر وكل ذلك يجري في مجاله الذي قدّره الله ويَسْبَحُ في فلكه فلا يحيد عنه.

والليل والنهار يحصلان من دوران الأرض حول محورها مرة كل ٢٤ ساعة. كما تدور الأرض أيضاً حول الشمس في مدار مستغرقة سنة كاملة مسببة الفصول الأربعة.

والشمس تدور حول مركز مجموعتنا النجمية في الفضاء وهي تسير بسرعة ٢١٦ كيلومتراً في الثانية. والقمر كالأرض يدور حول محوره كما يدور في مداره حول الأرض وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض نحو ٢٩ يوماً ونصف اليوم. فسبحان الذي كشف أسرار الخلق قبل أن يتوصل العلم إلى كشفه بمئات السنين.



وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم
بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى
فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

شرح المفردات

الخلد: البقاء في الدنيا.
ونبلوكم: نختبركم.
فتنة: ابتلاء وامتحاناً.
هزواً: سخرية.
ساوريكم آياتي: سأريكم عقابي.
لا يكفون: لا يدفعون.
فتبهتهم: تحيرهم وتدهشم.
يُنظرون: يمهلون لتوبة أو معذرة.

اختبار الإنسان وعاقبة الكفر

وبعد أن ذكر القرآن الأدلة على وجود الخالق بيّن أن مصير الناس إلى زوال في الدنيا وأنهم خُلقوا للابتلاء امتحاناً من الله لهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإن مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾ أي وما جعل الله لبشر

من قبلك يا محمد دوام البقاء في الدنيا أفإن مت يا محمد أفهم الخالدون في الدنيا لا يموتون.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموتِ﴾ هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة، فالموت هو نهاية رحلة العمر لكل إنسان والتي تتفاوت في الطول والقصر بين حي وآخر ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخير فِتْنَةً﴾ أي وما يصيب الإنسان في رحلة العمر من شرٍ أو خير فهو اختبار له وامتحان ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ومصير الناس بعد مماتهم إلى الله حيث يجازيهم الله على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهنا وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ والخيرِ فِتْنَةً﴾ فمسألة الابتلاء ردّدها القرآن في كثير من الآيات مبيناً أن الإنسان خلق على هذه الأرض لهذا الغرض ليتبين جوهر صدقه ومبلغ إيمانه وطاعته لربه، جاء في القرآن: ﴿الذي خَلَقَ الموتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

فاختبار الله للإنسان بالشر كالفقر والمرض والمصائب والآلام وسائر الشدائد هو ليظهر مدى احتماله وصبره ومبلغ ثقته ورجائه في رحمة ربه.

أما اختبار الله للإنسان بالخير فهو أصعب لأن مغرياته كثيرةٌ كالمال والجاه والسلطة وهي قد تؤدي بالإنسان إلى الكبرياء والبخل والظلم والإعراض عن ذِكْرِ الله وعبادته.

فاختبار الله للإنسان بالمال هو ليظهر شكره على نعم الله عليه فينفق على المعوزين من عباد الله وفي وجوه الخير، لا أن يهدر أمواله على الشهوات والترف والمعاصي وبناء القصور للعبث والتباهي بها، ولا أن يكدس أمواله في الخزائن والبنوك، فلا يجعلها في صالح المجتمع وخيره كما هو المشاهد عند كثير من الأغنياء الذين أبطرتهم النعمة، فابتعدوا عن الله وحُرِموا من رحمته.

وبعد ذِكْرِ ابتلاء الإنسان بالخير والشر تأتي الآيات مواسية لرسول الله محمد ﷺ

بسبب ما يلاقيه من سخرية من قومه: ﴿وإذا رآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إن يتّخذونك إلا هُزُواً﴾ إن بمعنى ما. والمعنى: وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلاّ سخرية ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ ويقولون استنكاراً وتعجباً: أهذا الذي يعيب آلهتكم ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم بذكر الله وما يجب أن يُذكر به من وحدانيته ونعمه التي أفاضها عليهم هم منكرون. فهم أحق أن يهزأ بهم لأنهم عبدوا أصناماً لا تنفع ولا تضر.

﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي إن جنس الإنسان خلق ومن طبيعته العجلة والتسرع في كافة أموره ومتطلباته وتحدياته، ومن ذلك ما تحدى الكفار به النبي ﷺ بأن يأتيهم بالعذاب الذي أوعدهم به، فيكون جواب الله لهم: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ سأريكم نقماتي عليكم بالهلاك المعجّل في الدنيا والعذاب في الآخرة فلا تستعجلون بحلول العذاب فيكم فإنه سيأتيكم لا محالة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفار على سبيل الاستهزاء والإنكار للنبي وللمؤمنين متى حدوث هذا العذاب الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين في ما أخبرتمونا به ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم حين يدخلون جهنم وتحيط بهم نيرانها من كل الجهات فلا يستطيعون دفعها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ولا يجدون من ينصرهم بدفع النار عنهم. وجواب ﴿لو﴾ في صدر الآية محذوف تقديره: أي لو يعلم الكفار فداحة العذاب الذي سيصيبهم في جهنم لما كانوا على تلك الصفة من الكفر والاستعجال لعذاب الله ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ ولا تأتيهم القيامة على انتظار وتوقع، بل تأتيهم فجأة فتحيرهم وتدهشهم ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها ولا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا يقدرون على صرفها عنهم، ولا هم يمهلون لتوبة أو اعتذار لفوات الوقت.

وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن
ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ
أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ
ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ
يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ
نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا
حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

شرح المفردات

فحاق: فنزل أو أحاط.

يكلؤكم: يحفظكم ويحرسكم.

يُصحبون: يجارون ويمنعون.

نفحة: نصيب يسير.

القسط: العدل.

مواساة النبيّ ﷺ وإنذار الكفار

ثم تأتي الآيات تواسي الرسول محمداً بما كان يلاقيه من قومه من استهزاء وسخرية: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ولك يا محمد قدوة فيما جرى لرسل الله قبلك حين استهزىء قومهم بهم ﴿فَحَاقَ بالّذين سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فنزل بهؤلاء المستهزئين برسل الله العذابُ جزاءَ استهزائهم بهم، وهؤلاء المستهزئون بك يا محمد سينالون عذاب الله كما جرى لأسلافهم.

﴿قُلْ مَنْ يكلؤكُم باللّيل والنَّهارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين: من يحفظكم بالليل والنهار من عذاب الله إن نزل بكم. وفي صفة (الرحمن) لله سبحانه تنبيه على أنه لا حفظ لهم من الله إلاّ برحمته ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِم مُعْرِضُونَ﴾ بل هم عن القرآن، أو مواعظ ربهم لاهون غافلون لا يتفكرون فيها ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنا﴾ استفهام لإنكار أن يكون لهم آلهة. أي ألهم آلهة تمنعهم من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليهم واثقون بحفظها لهم ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِم﴾ وهذه الآلهة التي يعولون عليها لا تستطيع أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها ﴿وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ولا هم من الله يحفظون وينقذون.

ثم يبين الله تفضله على هؤلاء الكفار: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وآباءَهُم حتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ بل متعنا هؤلاء وآباءهم بالحياة الدنيا وأمهلناهم فلم نعاقبهم على كفرهم حتى طالت أعمارهم فاغتروا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون مستمرون على ذلك لا يغلبهم غالب.

﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أفلا يرى هؤلاء الكفار آثار قدرتنا في إتيان أرض الكفر ننقصها باستيلاء المؤمنين عليها فيفتحونها بلداً بعد بلد. فمعنى نقص أطرافها دخول المسلمين فيها واتساع رقعة الإسلام، وهذا ما كان قبل فتح مكة فقد استولى المسلمون على كثير من البلاد حول المدينة المنورة التي كانت معقل الإسلام ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ استفهام للإنكار والتقريع، أي كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرض الكفر من أطرافها.

هذا ما ذهب إليه المفسرون القدامى. والمعجز في تعابير القرآن أنها لا تصادم النظريات الثابتة التي توصل إليها العلم فالقرآن يفسر في كل عصر بما يفهمه أهله. وقد فهم العلماء المُحْدَثُون من هذه الآية عن الأرض ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما طالعتنا به

النظرية العلمية التي تقول بأن الأرض ليست كاملة الاستدارة إذ أنها مسطحة عند القطبين ومنتفخة بعض الشيء عند خط الاستواء وأن نصف القطر الاستوائي يزيد على نصف القطر القطبي بمقدار ٢١,٥ كيلومتراً تقريباً، أي إن الأرض قد نقصت من أطرافها الممثلة في القطبين الشمالي والجنوبي، فتأمل إعجاز القرآن.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أحذركم ولا أخوّفكم بكلام من عندي وإنما أخوفكم وأحذركم بالقرآن الذي هو كلام ربكم ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ ولكنكم أيها الكافرون لشدة جهلكم وعنادكم كالصم الذين فقدوا حاسة السمع. ولا يسمع من بهم صمم الوعظ والإنذار حين يُخَوَّفون بعذاب الله. إذ ليس الغرض بالإنذار السماع بل الاتعاظ به فإذا لم يحصل هذا الغرض صار المستمع كأنه لم يسمع ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولئن أصابهم شيء قليل من عذاب الله أو طرف منه ﴿لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي يقولون: يا هلاكنا إن كنا ظالمين في عبادتنا للأصنام وتركنا عبادة الله الذي خلقنا.

﴿وَنَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي ونضع الموازين العادلة التي توزن بها أعمال الإنسان يوم القيامة، فمن ثقلت حسناته على سيئاته فهو في عيشة راضية ومن خفت حسناته وثقلت سيئاته فهو في عذاب الله ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ أي لا ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي وإن كان العمل الذي عمله الإنسان زنة حبة من خردل أحصيناه وجازيناه به. ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وكفى بربك أن يكون حاسباً لأعمال الناس فلا يظلمون شيئاً مما عملوه.

وهنا نقف عند قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ لنتساءل لماذا اختار القرآن حبة الخردل في الثقل من بين حبوب النبات الأخرى، هنا إعجاز للقرآن ظهرت أسرار ذلك فيما يلي: فقد أثبتت التجارب العلمية أن الكيلوغرام من حبوب الخردل يحتوي على ٩١٢ ألف حبة، وهذه أصغر وزن لحبة نبات عرفت حتى الآن.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ
أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ
عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

الفرقان: التوراة التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.
مشفقون: خائفون.
وهذا ذكر: أي القرآن تذكير وعظة.
رشده: اهتداءه لوجوه الخير والصلاح.
التماثيل: الأصنام المصنوعة من الخشب وغيره.
عاكفون: مقيمون على عبادتها.
فطرهن: خلقهن.

موسى وهارون وإبراهيم عليهم السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن بعض أنبياء الله الذين أرسلهم سبحانه هداة للبشر:

﴿ولَقَدْ آتينا مُوسَى وهَارونَ الفُرْقَان﴾ والمراد بالفرقان: التوراة، وسميت بذلك لأنها تفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام ﴿وَضِياءً وذِكْراً للمُتَّقِينَ﴾ وهذه التوراة كانت تضيء لليهود أمرَ دينهم وتوصلهم إلى طرق الهدى وسبل النجاة. وهي أيضاً تذكير وموعظة لمن اتقى الله بطاعته وأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وخص الله المتقين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بهدي الله ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب﴾

وهؤلاء المتقون يخافون ربهم في خلواتهم إذا غابوا عن الناس، أو بمعنى: يخافون ربهم دون أن يروه ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ وهم من عذاب يوم القيامة وأهوالها خائفون ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي وهذا القرآن الكريم تذكير وعظة، كما أنه مبارك أي كثير الخير والنفع أنزله الله على رسوله محمد كما أنزل التوراة على موسى ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ في هذا الاستفهام الإنكاري توبيخ لهم بأنه لا ينبغي إنكاره وهم عارفون بمزايا إعجازه وعدم استطاعة أحد أن يأتي بمثله.

وبعد ذِكْرِ التوراة والإنجيل يقول سبحانه في شأن إبراهيم:

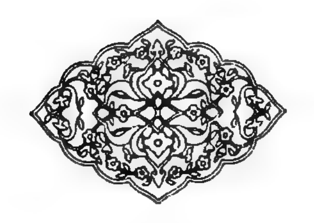
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ أي ولقد أعطينا إبراهيم هداه وما فيه صلاحه في الدين والدنيا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ وكنا عالمين بأحواله وفضائله التي تؤهله للنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّماثيلُ التي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وآذكر يا محمد ما قال إبراهيم لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم مقيمون على عبادتها. استفهام فيه تحقير لأوثانهم وتوبيخ لهم بسبب إقبالهم على عبادتها، وتنبيه أذهانهم إلى التأمل في شأنها حيث إنها لا تنفع ولا تضر. وإبراهيم لم يقل إنها آلهة وإنما سمى تلك الأحجار والخشب باسمها حيث قال: ﴿ما هذه التماثيل﴾. فكان جوابهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ هذه هي حجتهم الواهية في عبادتهم للأوثان وهي أنهم مقلدون لآبائهم نحسب. فيقول لهم إبراهيم منكراً لهم سلوكهم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي أنتم وآباؤكم في ضلال ظاهر لا يخفى على أحد من العقلاء. فالتقليد الأعمى للآباء بدون إمعان فكر هو آفة المجتمعات البشرية فيَ كل العصور لأنه يقف حاجزاً بينها وبين الرضوخ للحق وإصلاح ما هي عليه من خطأ، ويحول بينها وبين التطور نحو الأحسن.

فإبراهيم عليه السلام بنص القرآن هو أول من جاهر بالثورة على التقاليد البالية ودعا إلى التحاكم إلى العقل في شأن عبادة قومه للأوثان.

ولما سمع القوم تسفيه إبراهيم لعقائدهم ووصفه إياهم بالضلال أجابوه: ﴿قَالُوا: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي أجئتنا في هذا الذي تقوله بما تعتقد أنه الحق أم أنت بهذا الكلام من الذين يلهون ويلعبون؟ سؤالهم هذا ينم عن عدم اليقين في عبادتهم للأوثان.

ولكن إبراهيم يجيبهم جواب المتيقن بعقيدته التي لا يعتريها شك: ﴿قَالَ: بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فالإله المعبود بحق هو رب واحد، ربُّ السموات والأرض الذي خلقهن، لا لعبادة الأوثان التي لا تخلق شيئاً. ثم أردف إبراهيم قوله: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهو مبالغة منه في التأكيد على عقيدته، فإبراهيم لم يشهد خلق السماوات والأرض، ولكن الأمر عنده من الوضوح واليقين على ذلك بما لا يعتريه شك.



وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا
لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ
أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا
يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

لأكيدن: لأجتهدن في كسرها، والكيد في اللغة الاحتيال في الإضرار.

جذاذاً: قطعاً أو فتاتاً.

نكسوا على رؤوسهم: رجعوا إلى كفرهم وعنادهم.

افٍّ لكم: كلمة تضجُّر وتبرم وكراهية.

تحطيم إبراهيم للأصنام

ثم يعلن إبراهيم لمن حوله أمراً قد قرر تنفيذه في شأن أصنام قومه: **﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾** أي والله لاحتالن في إيصال الضرر لأصنامكم بعد أن ترجعوا من عبادتها مبتعدين عنها. فسمعه رجل منهم فأفشاه إلى غيره، وكان قوم إبراهيم قد ذهبوا إلى الاحتفال بعيد لهم وتخلف إبراهيم عن الحضور بداعي السقم. **﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾** أي كسّر الأصنام قطعاً إلاَّ الصنم

الكبير[١] فإنه لم يكسره وتركه على حاله لعلهم يرجعون إليه فيسألونه عمن كسّر الأصنام فيتبين لهم عجزه عن النطق فضلاً عن حماية الأصنام الأخرى، فتقوم الحجة عندئذ عليهم بأن آلهتهم وهي الأصنام التي يخصونها بالعبادة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تدافع عن الغير.

وتحطيم إبراهيم للأصنام إنما كان لإقامة الدليل الحسي على قومه في بطلان عبادة الأصنام، إذ لو كانت آلهة حقيقية كما يعتقدون لدافعت عن نفسها، وألحقت الضرر بمن أرادها بسوء.

رجع قوم إبراهيم بعد أن احتفلوا بعيدهم وعرّجوا على أصنامهم فرأوا ما حلّ بها من تحطيم فراعهم ذلك وتساءلوا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من فعل هذا التحطيم بآلهتنا لشديد الظلم حيث تجرأ على إهانتها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال بعض منهم ممن سمع تهديد إبراهيم لآلهتهم: سمعنا شاباً يعيبهم ويهدد بالنيل منهم يسمى إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي فأتوا بإبراهيم على مشهد من الناس ﴿لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ﴾ لعلهم يشهدون محاكمته وتنفيذ العقوبة به ﴿قَالُوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قالوا لإبراهيم: أأنت حطمت هذه الأصنام؟

ويشعر إبراهيم بأن الفرصة قد سنحت له ليبلغ مأربه، وليصل إلى الحقيقة التي أراد أن يقروا بها، فبأسلوب حكيم يجيبهم عن سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وأن الشاهد على فعله هو بقية الأصنام ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا

---

(١) يفهم من قوله تعالى: ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَهُم﴾ أنه كان لقوم إبراهيم إلّه كبير بجانب آلهتهم من الأصنام وهو الذي أبقى عليه إبراهيم فلم يحطمه ويذكر (ول ديوارنت) في كتابه قصة الحضارة عن بابل التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام: (بأن مردك كان يعتبر كبير الآلهة عند أهل بابل وإنه كان بجانب هذا الإلّه كثير من الآلهة).
ونعقب على ذلك فنقول: إن هذه الحقائق التي ذكرها القرآن في معتقدات أهل بابل والتي أيدتها الدراسات الحديثة في تاريخ الأمم السابقة تشهد بأن القرآن وحي إلهي وصدق نبوة محمد ﷺ.

يَنْطِقُونَ﴾ ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد أثار فيهم شيئاً من الروية والصواب ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُم أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع من انقطعت حجّته المقر لحجة خصمه قائلين فيما بينهم: أنتم الظالمون أنفسكم بعبادة ما لا ينطق وما ليس باستطاعته الدفاع عن نفسه.

ولكن لم تكن إلاّ ومضة فكر نيّر أعقبها ظلام الجهل ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى جهلهم وعنادهم. يُقال نكسته أي قلبته فجعلت أعلاه أسفله، فقد شبه الله سبحانه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة. ثم قالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ هذه هي النتيجة التي توخاها إبراهيم وهي أن يقروا بأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تنفع ولا تضر. وهنا تبرز حجة إبراهيم داوية مجلجلة تقرع آذانهم وتخرس ألسنتهم بهذا الجواب البليغ:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُم شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾ أي أتعبدون من غير الله جمادات لا تنفعكم إذا طلبتم منها شيئاً ولا تضركم إذا أهملتم عبادتها ﴿أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفّ: لفظ إذا صوّت به علم أن صاحبه متضجر. إن إبراهيم أصابه الضجر بعدما رأى من قومه ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق فتأفف منهم. وتأمل كيف ختم إبراهيم قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فلو كان عندهم ذرة من عقل لما أصروا على عبادتهم للأصنام.

وما جاء على لسان إبراهيم يبين تفاهة وحقارة الذين يقدسون الأصنام ويعبدونها من دون الله. ومن الغريب أن بعض الديانات في العالم تقيم الأصنام في معابدها على الرغم مما وصل إليه العقل البشري من رقي، ولكن تقليد الآباء طغى على كل مقومات العقل.

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

شرح المفردات:

نافلة: عطية أو زيادة على ما سأل وهو ولد الولد.

تعمل الخبائث: أي الأعمال الخبيثة كاللواط وغيره.

نجاة إبراهيم ولوط

ولما رأى قوم إبراهيم أنهم غُلبوا على أمرهم ولم تبق لهم حجة عمدوا إلى القوة يسترون بها فضيحتهم فأصدروا حكمهم عليه بالموت: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلِهَتَكُم إنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إحرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لآلهتكم ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقاً. ولكن ما هذه الآلهة التي ينصرها من يعبدها، فقد بلغوا من السخف وانعدام العقل بحيث لا يميزون بين الباطل والصواب.

وهنا تأتي العناية الإلهية ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيمَ﴾ في الكلام حذف: أي أوقدوا له ناراً ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقال الله للنار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. يقول ابن عباس: لو لم يتبع الله بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدة بردها.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ وأرادوا أن يبطشوا به فجعلناهم أشد الناس خسراناً حيث بطل سعيهم في إطفاء نور الحق، وظهر لهم أن إبراهيم هو المنتصر الأكبر بتأييد الله له.

وهكذا ينجي الله المؤمنين من أعدائهم ويخفف عنهم من أهوال الحياة ومصائبها فيضفي عليها برداً وسلاماً بلطفه وإحسانه وكرمه.

وبعد نجاة إبراهيم من محاولة إحراقه بالنار خرج من أرض العراق ومعه ابن أخيه لوط يلتمس الفرار بدينه والأمان في عبادة ربه فنزل بحرّان ثم هاجر إلى مصر ثم رجع إلى فلسطين من أرض الشام وترك لوطاً بقرية المؤتفكة وتسمى سدوم وهي في مكان قرب البحر الميّت. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وصف الله أرض الشام التي تشمل فلسطين بالأرض المباركة لكثرة ما بعث فيها من الأنبياء التي انتشرت شرائعهم في العالمين، كما بارك الله فيها بخصوبة أراضيها وكثرة أشجارها وأنهارها فاجتمع فيها خير الدنيا والآخرة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي وهب الله لإبراهيم ولداً اسمه إسحق كما وهب له يعقوب ابن ابنه إسحق، لأن ولد الولد كالولد ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وجعل الله كُلاً من إبراهيم وإسحق ويعقوب من أهل الخير والصلاح مطيعين لربهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وجعلهم الله أئمة يقتدى بهم يدعون الناس إلى دين الله بأمره وإذن منه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِم فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وأوحى الله إليهم أن يفعلوا الخيرات وهي الأعمال الصالحات من فعل الطاعات وترك المحرمات وأن يقيموا الصلاة وهي أداؤها كاملة مستوفية لشروطها، ويعطوا الزكاة لمستحقيها ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ وكانوا لله خاضعين طائعين له بإخلاص. ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي وأعطى الله لوطاً الحُكْمَ: وهو حسن الفصل في الخصومات بين الناس، وكذلك آتاه علماً بأمر دينه وما يجب عليه لله تعالى من واجب الطاعة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أي ونجاه الله من عذابه الذي عذب به أهل قرية سدوم حيث أهلكها الله وجعل عاليها سافلها بسبب ما كانوا يرتكبونه من فاحشة اللواط

وقطع الطرقات ﴿إنَّهم كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ إنهم كانوا قوماً أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ في رَحْمَتِنَا إنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وجعل الله لوطاً من جملة الذين يستحقون رحمته بإدخاله الجنة لأنه كان من أهل الصلاح والتقوى.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا
حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ
عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

شرح المفردات

الكرب العظيم: الغم الشديد، والمراد النجاة من الطوفان.

الحرث: هو زرع أو كَرْمٌ.

نفشت فيه غنم القوم: رعته ليلاً بلا راع.

صنعة لبوس: عمل الدروع التي تُلبس في الحرب.

من بأسكم: من حربكم مع أعدائكم.

الريح عاصفة: شديدة الهبوب.

يغوصون له: أي يغوصون في البحار لاستخراج الجواهر.

نوح وداود وسليمان عليهم السلام

ويتابع القرآن الكلام عن الأنبياء فيذكر بإيجاز ما جرى لنوح عليه السلام: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي واذكر يا محمد نوحاً إذ نادى ربه من قبلك ومن قبل إبراهيم ولوط وسأله أن يهلك الذين عصوا الله وكذبوا نبوته وما جاء به من الحق من عند ربه فاستجبنا دعاءه وأرسلنا عليهم الطوفان فأغرقناهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ فنجيناه وأهل الإيمان من قومه من الغرق والغم العظيم الذي حل بالمكذبين له ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ونصرنا نوحاً على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا الدالة على أنه رسول من عندنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إنهم كانوا أصحاب شر يسيئون الأعمال فأغرقناهم جميعاً.

ويذكر الله ما جرى لداود وسليمان في قضية أصدرا الحكم فيها: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي واذكر يا محمد داود وسليمان حين كانا يحكمان في شأن الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ إذ انتشرت فيه غنم القوم من غير أصحابه وأكلت زرعه ليلاً ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وكنا لحكمهم في القضية المتعلقة بالزرع عالمين ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي ففهمنا القضية سليمان دون داود ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ وكلاًّ منهما أعطيناه حِكمَة وَعِلماً كثيراً.

وهذه القضية كما ذكرها المفسرون: إن غنماً أقبلت ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأكلت الزرع. فاحتكم أصحاب المزرعة إلى داود قائلين: يا نبي الله إنا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء. فقال داود لأصحاب المزرعة: كم تقدرون ثمن زرعكم فذكروا له الثمن، ثم قال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمن أغنامكم فقدروه بثمن ما، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم. وكان ابنه سليمان حاضراً يشهد هذه المحاكمة فابتدره قائلاً: لي رأي في هذه القضية: وهو أن يدفع أصحاب الغنم

أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوي الزرع فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم، فرضي الجميع بهذا الحكم، وقال داود: وُفِّقْتَ يا بنيّ بهذا الحكم وحكم بما أفتى به سليمان.

ففي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ دليل على أن سليمان هو المصيب للحق ولولا ذلك لما خصصه الله بالفهم، وتخصيصه بالفهم لا يدل على خطأ داود لجواز كون كل واحد منهما مصيباً وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً﴾.

وقد استدلَّ بهذه الآية على جواز الاجتهاد في الأحكام، وأن المجتهد قد يخطىء وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم، وأن للحاكم الرجوع عن حكمه من اجتهاد له إلى أرجح منه إذا تبين له ذلك.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ وسخرنا: أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح، فكان داود إذا سبح ربه أجابته الجبال، وتقف الطير في الهواء مجاوبة له في تسبيحه بصوت يتمثل له، والتسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كل سوء ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وكنا قادرين على أن نفعل هذا وإن كان غريباً عنكم أيها الناس ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ وعلمنا داود صناعة الدروع، واللبوس عند العرب السلاح كله درعاً كان أو سيفاً أو رمحاً، والمراد في الآية الدروع خاصة ﴿لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُم﴾ لتقيكم إذا لبستموها أذى الحرب من قتل وجرح ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ والاستفهام هنا في معنى الأمر، أي اشكروا الله على هذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم. ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجري بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة الشديدة السرعة، وجعلناها طائعة له فهي تجري بأمره وتنقله إلى أجزاء الأرض المقدسة المباركة وهي أرض الشام، وهذا أمر ليس بمستبعد في عصرنا الحاضر الذي سخر فيه الإنسان العلم لإغراضه باختراع الطائرات التي تنقل الإنسان إلى أقاصي الأرض في مدة وجيزة ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وكان الله عالماً بكل شيء في هذا

الكون لا تخفى عليه خافية. وقد رويت في كيفية تسخير الرياح لسليمان روايات هي من الإسرائيليات التي لا يعتد بها ولا أساس لها من الصحة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ من يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في أعماق البحر يستخرجون له الجواهر واللآلىء ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ ويعملون أعمالاً أخرى غير ذلك كبناء القصور والمعابد وما يحتاجه سليمان من كافة الصناعات المختلفة التي يعجز عنها الإنسان ﴿وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ﴾ وكنا لهم مراقبين لأعمالهم فلا ينالون أحداً بسوء، ولا يتمردون على أمر سليمان.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً
مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ
إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ
أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

شرح المفردات

الضُّرُّ: الضرر والشدّة في الجسم من مرض وهزال.
ذا النون: هو يونس بن متى.
لن نقدر عليه: لن نضيّق عليه.

أيوب وإسماعيل وإدريس ويونس عليهم السلام

وبعد الكلام عن سليمان وما خصه به من معجزات يأتي الكلام عن أيوب عليه السلام:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي واذكر يا محمد أيوب حين دعا ربه قائلاً: إني مَسَّنِي الضُّر وأنت يا رب أرحم الرحماء. والضر كل ما كان من سوء حال وفقر ومرض شديد. ودعاء أيوب فيه تلطف في الدعاء حيث وصف نفسه بما يوجب الرحمة، ووصف ربه بغاية الرحمة. مع ما في دعائه من علامات الرضا والتسليم بقضاء الله ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ فاستجبنا دعاءه ورفعنا عنه الضر وعافيناه في بدنه ﴿وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُم﴾ أي وأعطيناه أولاداً بقدر من مات من أولاده وزدناه مثلهم ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى للعَابِدِينَ﴾ أي رحمة به من فضلنا وتذكيراً لغيره ممن يعبدوننا ليصبروا كما صبر ويطمعوا في رحمة الله.

وأيوب عليه السلام هو نبي من أنبياء الله ومن ذرية إبراهيم عليه السلام وأمه من ولد لوط عليه السلام، وسمي أيوب لأنه آب إلى الله في كل حال.

ويروي علماء التفسير والتاريخ أن أيوب كان كثير المال من سائر صنوفه، وكان له أولاد وأهلون فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم البيت عليهم وذهاب أمواله وإصابته بمرض في بدنه ثماني عشرة سنة وقيل أقلّ من ذلك، ويروى أن امرأته قالت له يوماً: لو دعوت الله تعالى، فقال قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله إن أصبر له سبعين سنة.

ويروي المؤرخون والمفسرون عن أيوب حكايات كثيرة أخذوها من مصادر شتى بأسانيد واهية ولكن لا يوثق بها لأنها تتنافى مع سيرة الأنبياء وما عصمهم الله من كل سوء.

أما ما يروى عن المرض الذي أصابه وأن الناس جميعاً تحاموه وطردوه من مقامه إلى ظاهر المدينة في موضع الكناسة فهذا من الإسرائيليات والأكاذيب التي ليس لها سند صحيح يؤيدها لأن من شروط النبوة عندنا ألاّ يكون في النبي من الأمراض والأسقام ما ينفر الناس منه ولأنه متى كان كما يدّعون لا يستطيع الاتصال بالناس وتبليغهم شرع الله.

وخلاصة القول: إن البلاء لم ينج منه الأنبياء بل هم أشد الناس بلاءً كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وابن ماجه عن النبي ﷺ «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». والسعادة والشقاء في هذه الدنيا لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار امتحان وإن عاقبة الصبر هي توفية الأجر ومضاعفة العطاء، فإن أيوب لما امتحن بما فقد من أرزاقه وأهله، وبما عاناه من آلام في جسده صبر وشكر ربه فكان أن رحمه سبحانه فشفاه الله من مرضه وأعطاه أضعاف ما فقد من مال وولد ولذا قال سبحانه عقب قصة أيوب ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي تذكرة لغيره ممن يعبدون الله ليصبروا كما صبر.

ويتابع القرآن فيذكر بعض الأنبياء الذين صبروا على ما أصابهم من المحن والشدائد وهم:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس وذي الكفل وكلٌّ من هؤلاء كانوا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة. وذو الكفل قال عنه البعض إنه رجل صالح غير نبي، والظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلاّ وهو نبي. وسبب تسميته بهذا الاسم فلأنه تكفل لنبي من أنبياء بني إسرائيل ببعض العبادات فوفى بها. ويروى إن ذا الكفل هو الياس. ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وجعلناهم من الذين يستحقون رحمتنا وهي دخول الجنة إنهم من أهل الصلاح والتقوى.

ويتابع القرآن فيذكر ما جرى للنبي يونس عليه السلام:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أن لا إلَه إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي واذكر يا محمد (ذا النون) وهو لقب ليونس ابن متى عليه السلام وسمي بذلك لابتلاع النون إياه، والنون هو الحوت ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ إذ فارق قومه وهو غضبان عليهم بسبب كفرهم، والمؤمن يغضب لِلّه عز وجل إذا رأى أحداً يعصيه ويجحده، وقد فارق يونس قومه بدون أن يأمره الله بفراقهم، وكان من واجبه الصبر على قومه وعدم مفارقتهم إلاّ بعد أن يأذن الله له. ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ

نَـقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فالقدر هو القضاء والحكم، أي ظن يونس أن لن يقضي الله عليه بالعقوبة. وتأتي قَدِرَ بمعنى ضيق، أي ظن أن لن يضيق الله عليه ويعاقبه على ترك قومه.

فيونس عليه السلام أرسله الله إلى أهل نينوى وهي قرية من أرض الموصل في العراق فدعاهم إلى عبادة الله وترك عبادة غيره والإقلاع عن الذنوب والمعاصي فأبوا وتمادوا في ضلالهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم بعد أن توعد قومه بنزول العذاب عليهم في وقت معلوم. وبعد مفارقتهم أظلتهم أمارات العذاب فخرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ثم تضرعوا إلى الله وتابوا عن معاصيهم فقبل الله توبتهم ورفع عنهم العذاب. ولم يعلم يونس بتوبتهم.

وبعد أن ترك يونس قومه وصل إلى ساحل البحر فرأى سفينة على أهبة السفر فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم في السفينة ففعلوا. أقلعت السفينة به وسارت في عرضِ البحر ولكنَّ أمواجاً هائلة ضربت السفينة وأشرفت على الغرق، فأرادوا أن يخففوا من حمولتها فاقترعوا على رجل يُلقونَه من بينهم فوقعت القرعة على يونس، فقام يونس وتجرد من ثيابه وألقى بنفسه في البحر فأرسل الله سبحانه إليه من البحر حوتاً يشق البحر فالتقمه، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، وهنا يصف الله حالة يونس وهو في بطن الحوت: ﴿فَـنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أن لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. أي دعا ربه في أعماق الظلمات المخيمة عليه: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل أن لا معبود بحق إلاَّ أنت تنزيهاً لك من أن يُعجزك شيء إني كنت من الظالمين بمعصيتك ومخالفة أمرك. ثم قال سبحانه بعد دعاء يونس: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَـهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ أي استجبنا لتضرعه ونجيناه من الضيق والكرب بإخراجه من بطن الحوت ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾ أي وكما نجينا يونس من تلك المحنة والكرب ننجي المؤمنين من كل كرب وشدة إذا لجأوا إلينا واستغاثوا بنا ورجعوا إلينا بالتوبة. يقول النبيّ ﷺ: دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: «لا إِلَه إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلاّ استجاب له» أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

شرح المفردات

لا تذرني فرداً: لا تتركني وحيداً بلا ولد.
رَغَباً: طمعاً في رحمة الله.
رَهَباً: خوفاً من عذاب الله.
خاشعين: متذللين خاضعين.
من رُوحِنَا: من جهة روحنا وهو جبريل.
أمّتُكُم: ملّتكم.
تقطعوا أمرهم: تفرقوا في دينهم.
حرام على قرية: ممتنع البتة على أهل قرية.

زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن زكريا عليه السلام:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ: رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ أي واذكر يا محمد زكريا إذ دعا ربه: رب لا تتركني وحيداً لا ولد لي ولا وارث ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾ وأنت يا رب

خير من يبقى بعد كل من يموت ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى﴾ فأجبنا دعاءه ورزقناه ولداً اسمه يحيى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً. وقيل: كانت سيئة الخلق سليطة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق، ويحتمل المعنيان معاً، فجعلت حسنة الخلق ولوداً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي إن زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا والعمل بما يقربهم إلينا ويحتمل رجوع الكناية بالضمير إلى الأنبياء المذكورين سابقاً ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ الدعاء هنا العبادة، أي كانوا يعبدوننا رغبة منهم فيما يرجون من رحمتنا وفضلنا عليهم، كما كانوا يعبدوننا رهبة من عذابنا وعقابنا فلا يقربون المعاصي.

ثم يأتي الكلام عن مريم لا لأنها من الأنبياء وإنما تمهيداً لذكر عيسى عليه السلام:

﴿والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَها﴾ واذكر يا محمد مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها من الزنا وعفّت فامتنعت عن الفاحشة، كما أحصنت فرجها من الحلال ولم يمسسها بشر ﴿فَنَفَخْنَا فيها مِنْ رُوحِنَا﴾ أي نفخنا الروح في عيسى فيها بأن أحييناه في جوفها، لأن نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه. والروح يطلق أيضاً على الملك جبريل عليه السلام بمعنى: أي فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل لأنه نفخ في فتحة القميص من جهة الصدر فوصل النفخ إلى جوفها فحملت بعيسى عليه السلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا مريم وابنها عيسى عبرة لعالمي زمانها وأعجوبة للخلق، وأمارة لنبوة عيسى ودلالة على عظيم قدرتنا. وكان من آيتهما إيتاء الرزق لمريم من عند الله عن طريق ملائكته ونطق ابنها عيسى في المهد وإجراء المعجزات على يديه بعد نبوته كإبراء الأكمه (الأعمى) وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات.

وبعد الكلام عن طائفة من الأنبياء عقب الله ذلك بقوله:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إن دينكم أيها الناس دين واحد وهو الإسلام الذي

هو في مجمله التصديق بوحدانية الله والخضوع والانقياد لوصاياه والإخلاص له ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ وأنا ربكم جميعاً فخصُّوني بالعبادة ولا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وتفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ودعاهم إليه فصاروا فيه أحزاباً وملَلاً ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي إن مرجع أهل الأديان إلى الله وهو مجازيهم على أعمالهم، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من يعمل بما أمره الله من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه وهو مقرٌ بوحدانية الله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا جحود لعمله بل الله يشكر عمله ويثيبه في الآخرة أفضل الجزاء ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ والله يأمر ملائكته بكتابة أعماله الصالحة في صحيفة أعماله ليثاب عليها يوم القيامة.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وممتنع على أهل قرية أهلكهم الله بسبب طغيانهم وتمردهم على طاعة ربهم أنهم لا يرجعون إليه يوم القيامة بل لا بد من رجوعهم إليه لمحاسبتهم على سوء أفعالهم.

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ
كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ
فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا
مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا

﴿يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ
لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾

شرح المفردات

حدب: مرتفع من الأرض.

ينسلون: يسرعون.

شاخصة: مرتفعة أجفانها لا تطرف من شدة الهول.

حصب جهنم: وقودها.

أنتم لها واردون: داخلون فيها.

زفير: أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف.

حسيسها: صوت لهبها.

السجل: الصحيفة المكتوب فيها الكلام.

من أمارات يوم القيامة ومصير الكفار والمؤمنين

ثم ينتقل بنا القرآن إلى ذكر بعض أمارت يوم القيامة:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي حتى إذا فتحت أبواب الشر والفساد وأخذ قوم يأجوج ومأجوج يسرعون في غزوهم ويتدفقون من كل مرتفع في الأرض على الأمم المجاورة لإشاعة الفساد فيها.

ويأجوج ومأجوج أقوام عُرفوا بالفساد والإفساد في الأرض منذ قديم الزمان، وقد أقام ذو القرنين عليهم سداً منيعاً يحجزهم عن إشاعة الفساد والخراب في البلاد والعباد، فإذا قَرُبَ قيام الساعة يأذن الله تعالى لهم بالخروج، ويكون من أمرهم ما ذكره القرآن هنا.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ واقترب مجيء يوم القيامة ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيفاجأ الذين كفروا من هول ما يرون فتظل أعينهم مفتحة فلا تغمض جفونهم من شدة الفزع ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي يقولون:

يا هلاكنا قد كنا في الدنيا غافلين لاهين عن مجيء هذا اليوم، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكفر والعناد. ثم يبين القرآن حال معبود الكفار يوم القيامة:

﴿إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي يقال لهؤلاء الكفار: إنكم والآلهة التي عبدتموها من غير الله وقود لنار جهنم التي أنتم داخلون فيها لتعذبوا بها، وقد جمع الله الكفار مع آلهتهم من الأوثان والأصنام لزيادة غمهم، وعجز آلهتهم عن نصرتهم ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوها﴾ أي لو كانت أصنامهم آلهة كما يزعمون ما دخلوا النار معهم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وكل من العابدين لهؤلاء الآلهة ومعبوداتهم هم في النار ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ وللكفار في النار أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف لما يلاقونه من شدة العذاب والكرب، وهم فيها لا يسمعون ما يسرهم، وسماع الأشياء فيها أنس وتسلية فمنع ذلك عن الكفار.

وبعد ذِكْرِ حال أهل النار يأتي وصف حال المؤمنين السعداء:

﴿إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ إن الذين وفقهم الله لطاعته وعبادته وعمل الخير، وبَشَّرَهم بدخول الجنة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أولئك مبعدون عن دخول النار ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ لا يسمعون صوت لهبها ﴿وَهُمْ في مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُم خَالِدُونَ﴾ وهم في الجنة أبداً مقيمون لهم فيها ما تشتهيه الأنفس من نعيمها ولذاتها ﴿لاَ يَحْزُنُهمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ لا يغمهم أهوال يوم القيامة والبعث، وذلك عندما ينفخ في الصور النفخة الثانية وهي التي وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ من في السَّمٰوات وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ الله﴾ [النمل: ٨٧] ثم يقول سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وتستقبلهم الملائكة مرحبين بهم على أبواب الجنة قائلين لهم: هذا يومكم الذي وعدتم به في الدنيا فيه الكرامة من الله والثواب الجزيل فأبشروا بهذا النعيم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ وفي هذا اليوم يوم الفزع الأكبر حيث

يكون المؤمنون بِمَنْأًى من الخوف يطوي الله السماء طيّاً كما تطوى صحيفة الكتابة. ثم يبتدىء الله الكلام عما هو فاعل بخلقه يومئذ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نعيد الخلق أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم كما بدأنا خلقهم أول مرة في بطون أمهاتهم ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وعدنا بذلك وعداً حقاً علينا أن نوفّي به، إنّا كنا فاعلين ما وعدناكم من ذلك أيها الناس.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي
أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا
تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ
احْكُمْ بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

شرح المفردات

الزبور: الكتب التي أنزلت على الأنبياء.

بلاغاً: لكفاية.

آذنتكم على سواء: أعلمتكم بأني محارب لكم على تساوٍ وتعادل في الإعلام.

وإن أدري: إن بمعنى ما، أي ما أدري.

فتنة: اختبار وامتحان.

محمد رحمة للناس جميعاً

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعده الله لعباده الصالحين من الاستخلاف في الأرض والفوز بنعيم الجنة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾ الزبور: الكتاب، وهو اسم جنس لكتب الأنبياء كلها التي أنزلها الله عليهم. كما يطلق الزبور على كتاب داود. ومعنى الذكر: هو أم الكتاب ويسمى اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل ما هو كائن من قبل خلق السماوات والأرض. والمعنى: ولقد بينا في الكتب التي أنزلناها على رسلنا من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ أزلاً، إن الأرض يرثها عبادي الصالحون لعمارتها وتيسير أسباب الحياة الطيبة فيها وإقامة العدل في أرجائها. وتشمل الأرض أرض الدنيا وأرض الجنة كما جاء في القرآن ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقد أورث الله عباده الصالحين أرض الدنيا في أزمنة مختلفة فقد أورث بني إسرائيل المستضعفين الأرض المقدسة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] وأورث الله أمّة محمد كثيراً من بقاع الأرض بناء على الوعد الإلهي لهم: ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا منكم وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ [النور: ٥٥].

ثم يبين الله بأن القرآن فيه الكفاية لمن يبتغي عبادة ربه: ﴿إِنَّ في هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ البلاغ: الكفاية وما تبلغ به البغية، أي إن هذا القرآن وما فيه من المواعظ والحكم وأنواع العبادات لكفاية لقوم مستعدين لعبادة الله وحده بما فيها من الفرائض كصوم رمضان، والصلوات الخمس وحج بيت الله الحرام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلاّ رحمة لكافة البشر مؤمنهم وكافرهم فأما مؤمنهم الذي صدق بما جاء به محمد من الهدى من عند ربه وعمل به فله الجنة وأما كافرهم فإن الله دفع بمجيء محمد عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة لرسلها. والدارس لشريعة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ من عند ربه يرى فيها كل مقومات الرحمة، فما من أمر فيه نفع وخير للناس إلاّ دعت إليه ورغبت فيه، وما من شر وظلم إلاّ حذّرت منه ووقفت في مجابهته، فشريعة الإسلام رحمة للعباد.

ثم يأمر الله رسوله في الآيات التالية بأن يخاطب المشركين على سبيل الإنذار:

﴿قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ واحِدٌ﴾ أي إن ما أوحى إليّ ربي أن الإله المعبود بحق هو الله الواحد الذي لا إله غيره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم منقادون وخاضعون له وحده ومتبرئون من عبادة الأوثان والأصنام ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الاستجابة لك وعبادة الله وحده وترك عبادة غير الله ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُم عَلى سَواءٍ﴾ آذنتكم: أعلمتكم ما أمرت به. وكثر استعمال هذه اللفظة في الإنذار والحرب، وقد جاء في القرآن ﴿فأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] فيكون المعنى: أعلمتكم بأني محارب لكم ﴿عَلى سَواءٍ﴾ أي متساوين في العلم بنقض الصلح لتستعدوا لذلك، فلا أنسب أنا للغدر ﴿وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ إن: بمعنى ما. أي وما أدري متى سيأتي الوقت الذي يحل بكم عقاب الله الذي وعدكم به، أقريب مجيئه أم بعيد ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمونَ﴾ وقل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله يعلم كل ما يقال مما تجهرون به، ويعلم مما تخفونه من القول مما تكتمونه، فهو لا يخفى عليه شيء.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُم وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وما أدري لعل إمهالكم وتأخير العذاب عنكم هو اختبار يمتحنكم الله به، ويمتعكم فيه بلذائذ الحياة إلى أجل قدره الله حسَبَ حكمته ﴿قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي قال النبي: يا رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قريش بالحق والعدل. بتأييدي بالنصر عليهم ﴿وَرَبُّنَا الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وقال لهم: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته استعين به عليكم فيما تفترون بأن لِلَّهِ ولداً وأن له شريكاً، وفيما تتهمونني بأني ساحر وإني شاعر وأني مفترٍ على الله، وحاشا لرسول الله ﷺ من كل ذلك.



سُورَةُ الحَجّ

تعريف بسورة الحج

بُدئت هذه السورة بعرض أهوال يوم القيامة وعقّبت على ذلك بعرض البراهين على حصول البعث مأخوذة من تطور خلق الإنسان في الرحم وإنبات النبات في الأرض.

ثم تتحدث السورة عن الذين يجادلون في الله بغير علم ويصرفون الناس عن دين الله، هؤلاء ينذرهم القرآن بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وتذكر السورة فئة من الناس تزن عقيدتهم بالله بميزان الربح والخسارة فإن أصابهم خير اطمأنوا، وإن أصابهم شر ارتدوا إلى الكفر، هؤلاء الذين خسروا الدنيا والآخرة.

وتتحدث السورة عن خضوع الكون لإرادة الله طوعاً وكرهاً، فكل ما في الكون منقاد لإرادة الله، كما تتحدث بعد ذلك عن مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة مع ذِكْرِ صفات المؤمنين المقربين إلى الله.

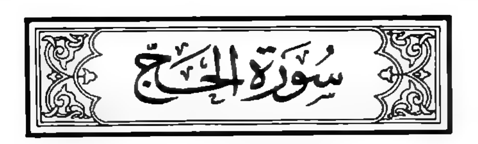
وفي السورة كلام عن مكانة بيت الله الحرام وقصة بنائه والدعوة إلى الحج وبيان بعض شعائره مع ذم الشرك بالله وبيان عاقبته الوخيمة.

وفي السورة مشروعية القتال للدفاع عن النفس والعقيدة، وبيان السلوك الواجب اتباعه بعد النصر، مع إنذار للكفار بالهلاك كما حصل للأمم السابقة.

وتتعرض السورة إلى ذكر مؤامرات الكفار في إلقاء الشبهات على دين الله، ثم تبشر المهاجرين الذين فروا بدينهم من الفتن بالثواب الجزيل.

وفي السورة بيان فضل الله على عباده، ودعوة أصحاب الملل إلى الإسلام وتسفيه عبادة الأصنام.

وتختتم السورة بدعوة المؤمنين إلى الصلاة والزكاة والجهاد في سبيل الله والاعتصام به مذكرة المؤمنين بنعمة الإسلام التي هي ملة رسول الله إبراهيم عليه السلام.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ
تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ
حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ
عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

شرح المفردات

زلزلة: الزلزلة هي الحركة الشديدة للأرض.
الساعة: القيامة.
تذهل: الذهول هو الذهاب عن الأمر بدهشة بسبب ما يطرأ من خوف وحزن.
حملها: جنينها.
يجادل: الجدال هو المنازعة في الرأي والمحاورة على سبيل المغالبة.

أهوال يوم القيامة

يبتدأ الله هذه السورةَ بوصف أهوال يوم القيامة ومظاهر الخوف الذي يصيب الناس آنذاك بقوله:

﴿ياأيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ﴾ يخاطب الله الناس جميعاً ولا يخاطب شعباً بعينه لأن القرآن أنزل للناس كافة والله سبحانه هو ربهم

جميعاً، هذه هي عالمية الإسلام التي تميزه عن الأديان السابقة. لقد خاطبهم بقوله: ﴿اتَّقوا رَبَّكُم﴾ أي احذروا عقابه، وذلك بفعل ما أمركم به من الواجبات والطاعات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عظيمٌ﴾ والزلزلة: هي التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرار بحيث يزيل الأشياء عن مواضعها، والساعة: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وزلزلة الساعة يكون وقتها يوم القيامة في آخر عمر الدنيا. والمعنى: اتقوا ربكم أيها الناس لتأمنوا من الخوف يوم القيامة، فإن من أطاع الله واجتنب معصيته أمَّنَهُ الله من كل ما يزعج، فالتقوى تقتضي دفع مثل هذا البلاء والضرر الفادح عن النفس.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ في هذا اليوم تغفل كل امرأة عن رضيعها الذي ترضعه ـ وهو أحب الناس إليها ـ من شدة كربها ودهشتها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتسقط الحامل ما في بطنها من جنين قبل أوان ولادته ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وترى الناس يتمايلون كالسكارى من شدة الهلع والخوف الذي أصابهم ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ وما هم بسكارى من الخمر ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكن أهوال يوم القيامة وشدائدها والخوف من عذاب الله أذهب عقولهم، وسلب وعيهم، وأفقدهم توازنهم.

ثم يبين القرآن صنفاً من الناس يجادلون في أمور الغيب بغير علم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض الناس من ينازع ويخاصم في صفات الله وأفعاله وقدرته على البعث بغير علم صحيح. هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث الذي كان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وأن الله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً. والآية حكمها عام لكل من تعاطى الجدال فيما لا يجوز لله من الصفات والأفعال ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ويتبع فيما يقوله ويحتج به كل متمرد على طاعة ربه متجرد للفساد، والمراد به إبليس وجنوده ورؤساء الكفر ومفكريهم الذين يدعون أتباعهم إلى الكفر والفساد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ قضي على الشيطان أن يضل من اتبعه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ويسوقه إلى عذاب جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ
مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ
مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي
الْقُبُورِ (٧)﴾

شرح المفردات:

البعث: إحياء الله الموتى يوم القيامة.

مخلَّقة: تامة الخلقة.

أرذل العمر: الخرف والهرم.

هامدة: ميتة يابسة.

اهتزت: اضطربت.

وربت: زادت.

من كل زوج بهيج: من كل صنف من النبات يسر الناظرين.

الساعة: القيامة.

البراهين على حصول البعث

ثم يقدم القرآن البراهين على حصول البعث بإعطاء صورة عن خلق الإنسان ونشأة النبات:

﴿يَاأَيُّها النَّاسُ إِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ﴾ ياأيها الناس إن كنتم في شك من بعثنا إياكم أحياء بعد مماتكم يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ فقد خلقنا أصلكم

وهو آدم من تراب؛ أما خلق الإنسان من تراب فذلك ما يؤيده الواقع ويقره العلم فلو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها التحاليل لوجدتها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض، وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من النبات أو من اللحوم التي تعيش على أكل النبات والنبات أصله من التراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعل نسل الإنسان من المنيّ، وسمي نطفة لقلته، فالنطفة في اللغة القليل من الماء ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد المتكوّن من تلقيح الحيوان المنوي للرجل ببويضة الأنثى التي تتضاعف خلاياها ولا تمر سبعة أيام إلاّ وقد صارت مثل ثمرة التوتة، وسميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم. ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصبح العلقة قطعة لحم. وطور المضغة يبدأ من الأسبوع الثالث من حياة الجنين فتعطيه شكل اللحم الممضوغ الذي لاكته الألسن ثم قذفته. والمضغة تنقسم إلى قسمين: ﴿مُخَلَّقَة﴾ أي تامة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي غير تامة الخلق. فطور المضغة يمر بمرحلتين، المرحلة الأولى حيث لم يتشكل أي عضو أو أي جهاز وتسمى المضغة غير المخلّقة. والمرحلة الثانية حيث تم فيها تمييز الأجهزة المختلفة وتسمى مرحلة المضغة المخلّقة. ويبدأ التمايز في بداية الأسبوع الخامس وهو ما يؤدي إلى ظهور الأعضاء والأجهزة. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النمط البديع والتدرج في الخلقة لنبين لكم كمال قدرتنا ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ونثبت ما نشاء من الأجنة في الأرحام حتى تكتمل مدة الحمل وتلد المرأة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً﴾ ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُم﴾ ثم لتصلوا شيئاً فشيئاً إلى سنّ فيه كمال عقولكم وتمام قواكم الجسدية ﴿وَمِنكُم مَنْ يُتَوَفَّى﴾ عند بلوغ السن الذي فيه كمالكم في القوة والعقل أو قبله أو بعده ﴿وَمِنكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ ومنكم من يمد الله في عمره حتى يبلغ إلى سن الهرم والخرف ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً﴾ أي يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم.

وخلاصة ما تقدم يبين القرآن للناس أن الله الذي خلقهم على هذه الصورة المدهشة لا تعجزه إعادتهم أحياء يوم القيامة بعد مماتهم وتحلل أجسادهم.

ثم يبيّن القرآن الدليل الثاني على حصول البعث: ﴿وَتَرى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي وترى أيها الإنسان الأرض قاحلة يابسة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهتَزَّت وَرَبَتْ﴾ فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت وزادت. وقد دلت البحوث في الأرض أنّ لها مساماً يتخللها الهواء، وأن نزول الماء على الأرض يدفع الهواء ويحل محله، وعند امتلاءِ مسامّ الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام وهذا معنى قوله تعالى ﴿اهتزّت﴾. كما أثبتت البحوث في طبيعة الأرض أن الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَرَبَتْ﴾ أي زادت ﴿وأنبتَت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتت الأرض من أصناف النبات ما يروق مظهره ويبهر حسنه.

وبعد أن بيّن الله هذين البرهانين على إمكان إحياء الموتى يوم القيامة رتب عليهما النتائج الآتية:

١ ـ ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي إن الذي فعل ذلك بخلق الإنسان وخلق النبات هو الله المعبود بحق، وأن ما يعبدون من دونه هو الباطل.

٢ ـ ﴿وَأَنَّـهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأن الله الذي يَقْدِر على هذه الأشياء البديعة لا يمتنع عليه إحياء الموتى.

٣ ـ ﴿وَأَنَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ وإن فاعل ذلك قادر على كل شيء، ومن ذلك قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة.

٤ ـ ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ وأن القيامة التي وعد الله فيها عباده آتية لا شك فيها.

٥ ـ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ﴾ وإن الله يبعث من في القبور أحياء ليجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾
ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ
مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

ثانِيَ عِطْفِهِ: متكبراً معرضاً عن سماع الهدى.
حَرْفٍ: طرف الشيء.
فتنة: شدة وبلاء.
لبئس: لقبح.
المولى: الناصر.
العشير: الصاحب والخليل.

الجدال بالباطل والإيمان المتردّد

وبعد أن أثبت القرآن قدرة الله على البعث بيّن حال الذين يخاصمون في الإسلام بالباطل عن جهل وغطرسة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ ومن الناس من يجادل في صفات الله وقدرته عن طريق الخصام والمغالبة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وجداله قائم على غير أساس علمي ومن غير دليل من كتاب منزل من عند الله مظهر للحق.

هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل، وقيل هي عامة لكل من

يتصدى للجدال بالباطل ويسعى لإضلال الناس وإغوائهم. وقد قيل إن المراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية السابقة، والتكرار للمبالغة في الذم.

ثم وصف الله هذا المجادل بالباطل بهذه الصورة البليغة ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ الثني: اللَّيّ. والعطف: الجانب عن يمين وشمال. والمراد منه الإعراض عن الحق تكبراً لأن شأن من أعرض عن شيء لوى جنبه، فشبه عدم التمسك بالحق والإعراض عنه كِبْراً وخيلاء بليِّ الجانب عن طريق الاستعارة. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وغرضه في الجدال بالباطل هو أن يوقع غيره في الضلال، ويصرفه عن دين الله وشرعه. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ فجزاؤه الذلُّ والهوانُ في الدنيا ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ويذيقه الله يوم القيامة عذاب حريق جهنم. ثم يُقال له عن طريق التبكيت: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي ذلك الذي تلقاه من العذاب هو بما قدمت يداك من المعاصي والكفر والإعراض عن دين الله وصد الناس عنه. والالتفات من الكلام عن الغائب إلى مخاطبة الكافر وجهاً لوجه فيه تأكيد الوعيد وتشديد التهديد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وأن الله عادل ليس بمعذبٍ أحداً من عبيده بغير ذنب اقترفه.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف نفسية ضعاف الإيمان الذين لا ثبات لهم في عقيدتهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ وحرف كل شيء طرفه. والمعنى: ومن الناس من يعبد الله على طرف من الدين لا ثبات له ولا استقرار، فمثله كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر اطمأن وقاتل مع الجيش، وإن أحس بهزيمة فرّ من الجيش. وهذا ما بينه الله بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فإن أصابه خير دنيوي من خير وعافية ووفرة مال ثبت على دينه واستمر على عبادة ربه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وإن أصابه ابتلاء في جسمه، أو ضيق في معيشته، أو نقص في ماله ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ ارتد ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسر الدنيا لأنه ليس له فيها ما يغنمه من عمل صالح لآخرته، وخسر راحة الاطمئنان إلى قضاء الله وما

أعده من ثواب للصابرين على البلاء. كما خسر الآخرة وما فيها من نعيم لارتداده إلى الكفر وإعراضه عن عبادة ربه ﴿ذَلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المبينُ﴾ ذلك هو الخسران الواضح الذي لا يخفى على كل ذي بصيرة.

﴿يَدْعو مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَمَا لا ينفَعُهُ﴾ أي هذا الكافر يعبد من غير الله أصناماً لا تضره إن لم يعبدها ولا تنفعه إذا عبدها ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ أي ذلك الضلال البعيد عن الحق والهدى ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي يعبد من ضرره بعبادته أقرب من نفعه في الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ولم ير منه نفعاً أصلاً ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ أي يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده لبئس الناصر أنت ولبئس الصاحب.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

شرح المفردات

بسبب: السبب هو الوسيلة وكل ما يتوصل به إلى شيء.
كيده: الكيد هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالخصم.

نُصرةُ الله لرسوله محمد ﷺ

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير المؤمنين في الآخرة:

﴿إنَّ اللَّهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ فالله وعد الذين صدّقوا بوجوده ووحدانيته وعملوا بما أمرهم به من الطاعات والأعمال

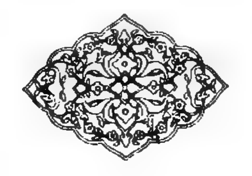
الصالحة بأن يدخلهم دار النعيم وهي جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيعطي ما يشاء من الكرامة لأهل طاعته، وما شاء من الهوان والعذاب للعاصين.

وبعد هذا الوعد للمؤمنين يأتي التأكيد بنصرة الله لرسوله محمد ﷺ:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي من ظن أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي فليطلب سبباً وحيلة يصل بهما إلى السماء ثم ليقطع نصرالله عن رسوله محمد إن تهيأ له ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي فلينظر هل تنفعه حيلته وكيده وغيظه في منع نُصرة الله لرسوله محمد ﷺ.

والفائدة مما ذكر أنه إذا لم يتهيأ له الكيد بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر عن رسول الله، كما أن في ذلك زجراً للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه لأن الله سيؤيد رسوله محمداً حتماً بنصره. وهذا من الأنباء الغيبية التي تحققت إذ لم تمضِ سنوات قليلة حتى دانت الجزيرة العربية لرسول الله، وانتشر الإسلام بين الأمم المجاورة، وأصبح عدد أتباع محمد يبلغ الملايين. فأيّ حجة أقوى من ذلك في الدلالة على صدق نبوة محمد وعلى أن القرآن وحي إلهي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال للآية السابقة الواضحة أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على أنه من عند الله لتقوم الحجة على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ وأن الله يثبت على الهدى من يريد هدايته من خلقه.



إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ
وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

هادوا: أي اليهود.
الصابئين: عبّاد النجوم أو عبّاد الملائكة.
المجوس: عبّاد الشمس والقمر والنيران.
أشركوا: عبّاد الأوثان.
يفصل بينهم: يقضي بينهم لإظهار المحق من المبطل.
شهيد: عالم بكل الأشياء ومراقب لها.

خضوع الكون لإرادة الله

ويتابع القرآن فيذكر بعض الملل التي يدين بها الكثير من البشر:

﴿إِنَّ الَّذين آمَنُوا وَالَّذين هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارى والمجوسَ والَّذين أشركوا﴾ فالذين **﴿آمنوا﴾** أي صدقوا بوجود الله ووحدانيته ورسله واليوم الآخر **﴿والذين هادوا﴾** هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام **﴿والصَّابِئينَ﴾** وهم قوم يعبدون النجوم وقيل: يعبدون الملائكة **﴿والنصارى﴾** وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام **﴿والمجوس﴾** وهم الذين يعبدون النار ويقولون إن للعالم أصلين النور والظلمة **﴿والَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** أي الذين يعبدون الأصنام أو يعبدون آلهة مع الله **﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بينهم يَوْمَ القِيَامَةِ﴾** إن الله يقضي بينهم يوم القيامة بقضائه العادل فيدخل المؤمنين الذين

اتبعوا رسله الجنة، ويدخل الكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ﴾ إن الله عالم مطلع على أعمال خلقه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

هذا بالنسبة للملل التي كانت قبل الإسلام، أما بعد مجيء الإسلام، فلن يُقبل من أي إنسان دين غير الدين الذي جاء به محمد ﷺ عن ربه وقد جاء في القرآن ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهو في الآخِرَةِ مِن الخاسِرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم يذكر القرآن بأن كل ما في الكون ساجد لعظمة الله طوعاً أو كرهاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ﴾ ألم تر: الرؤية هنا بمعنى العلم، أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السماوات وهم الملائكة. ومن في الأرض وهم الإنس والجن، والمراد بالسجود لله دخول الأشياء المذكورة تحت تسخيره وإرادته وأمره الكوني. فالكون كله خاضع لأمر الله تعالى وهو القائل في القرآن ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وكل ما في الكون يعبد الله بكيفية لا ندري كنهها كما جاء في القرآن: ﴿وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والسجود نوعان:

١ ـ سجود باختيار وليس ذلك إلاّ للإنسان وبه يستحق الثواب من الله نحو قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدوا لِلَّهِ وَاعْبُدوا﴾ [النجم: ٦٢] أي فاخضعوا له وأفردوه بالعبادة، ويشمل السجود هنا ما عرف شرعاً بوضع الجبهة على الأرض سواء في الصلاة، أو في سجود التلاوة أو الشكر تذللاً لله وخضوعاً له.

٢ ـ سجود تسخير وانقياد لأمر الله الكوني، ويشمل الإنسان والحيوانات والنباتات والأجرام السماوية كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السَّمٰوات والأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: ١٥].

ويتابع القرآن فيذكر الأشياء التي تسجد لله سبحانه وهي: ﴿وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ

والنُّجُومُ وَالجِبَالُ والشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ خص الله هذه الأشياء بالذكر لأنها عُبدت من غير الله عند بعض الشعوب، فكيف يخصونها بالعبادة وهي تسجد لله منقادة لأمره مطيعة له عابدة إياه بكيفية لا ندري كنهها ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد لله كثير من الناس يعبدون الله طوعاً وهم المؤمنون ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾ وكثير من الناس وجب عليهم عذاب الله بكفرهم وإبائهم السجود لله والخضوع له ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ومن يلحق الله به الذل والهوان فليس له من أحد يكرمه ويسعده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إن الله يفعل في خلقه ما يشاء من إهانة وإكرام لأن الخلق خلقه والأمر أمره.

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ
يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم
مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات:

الحميم: الماء الشديد الحرارة.
يُصْهَرُ: يذاب.
مقامع: أسواط.
الغم: الحزن الشديد.
وهُدوا: أرشدوا.
صِراط الحميد: هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً.

مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة

ثم يقدم لنا القرآن وصفاً عن أهل الجحيم وما يقاسونه من عذاب في الآخرة:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ عَنَى بالخصمين جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا وجميع المؤمنين. فهذان الخصمان اختصموا في دين ربهم، واختصامهم في ذلك معاداة كلٌ فريق منهما الآخر ومحاربته إياه على دينه ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسادهم وهنا استعارة تمثيلية حيث شبه إحاطة النار بهم بتفصيل ثياب لهم يرتدونها ويسترون بها أبدانهم ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِم الحَمِيمُ﴾ والحميم هو الماء البالغ غاية الحرارة الذي يصب على رؤوسهم زيادة في تعذيبهم ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ﴾ يذيب الحميم ما في بطونهم ويحرق جلودهم فتتساقط ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ولهم سياط من حديد يُضربون بها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كلما أراد الكفار الخروج من النار ـ مما نالهم من الكرب والحزن ـ ردتهم الملائكة إلى النار بالمقامع وقالت لهم ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحرِيقِ﴾ أي ذوقوا عذاب النار المحرقة جزاء كفركم.

وبالمقابل يذكر القرآن المؤمنين وما ينالونه من نعيم في الآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات جَنَّات تَجْري مِنْ تحتِها الأَنْهَارُ﴾ فالذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته وبما جاء به رسوله محمد من الهدى واقترن إيمانهم بالعمل الصالح يدخلهم ربهم جنات النعيم تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤلؤاً﴾ تزينهم الملائكة بأساور الذهب واللؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُم فيها حَرِيرٌ﴾ ولباسهم المعتاد في الجنة هو الحرير زيادة في نعيمهم ﴿وَهُدُوا إلى الطيِّبِ من القَوْلِ﴾ وهداهم الله في الجنة إلى القول الطيب الذي فيه تقديس الله وتوحيده والاعتراف بفضله والثناء عليه وإلى كل كلمة تنبىء عن الخلق الرفيع ﴿وَهُدُوا إلى صِراطِ الحَمِيدِ﴾ كما هداهم ربهم إلى الذي يحمد من الأفعال في معاشرة بعضهم فلا غل ولا حسد بل أخوة صافية.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ
سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ
بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ
كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ
ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ
لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ
وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يصدون عن سبيل الله: يمنعون الناس عن دين الله.

العاكف: المقيم فيه.

الباد: الزائر الآتي من البادية.

بإلحاد: ميل إلى الظلم وبعد عن الحق.

بوّأنا: بيّنا له.

رجَالاً: جمع راجل وهو الماشي.

وعلى كل ضامر: أي راكبين الإبل التي هزلت من كثرة السفر.

ليَقضوا: ليزيلوا.

تفثهم: الوسخ، وأريد به حلق الشعر وتقليم الأظافر والغسل.

حنفاء لِلّه: مخلصين لله، مائلين عن الضلال إلى الاستقامة.

تهوي: تسقط.

مكان سحيق: موضع بعيد مهلك.

الحج إلى بيت الله الحرام

وبعد أن بين القرآن مصير الكافرين والمؤمنين في الآخرة أنكر على الكفار منعهم المؤمنين من زيارة المسجد الحرام في مكة لأداء عبادتهم فيه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي إن الذين جحدوا ما جاءهم من ربهم من الهدى ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ودخول المسجد الحرام، الذي جعله الله للمؤمنين كافة يصلون فيه وينقطعون عنده للعبادة ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يستوي في العبادة فيه المقيم في مكة والقادم إليه من البادية ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي ومن يرغب في المسجد الحرام أن يميل إلى الظلم فيعصي الله فيه ويتعدى على الغير نُذقه يوم القيامة عذاباً موجعاً.

هذه الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدُّوا رسول الله والمؤمنين عام الحديبية من زيارة المسجد الحرام، وكان رسول الله محرماً ومن معه من المؤمنين بنية أداء العمرة، ثم صالحوه على أن يعود لأداء العمرة في العام القادم.

ثم يتابع القرآن مبيناً مكانة المسجد الحرام: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ واذكر أيها النبي حين بينّا لإبراهيم وأرشدناه إلى المكان الذي سيبني فيه الكعبة ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي لا تجعل لله شريكاً في عبادته ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وطهر الكعبة من عبادة الأوثان والأقذار للذين يطوفون حولها وللذين يُصلُّون وقد عبّر عن الصلاة بأركانها ومنها القيام والركوع والسجود.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ونادِ في الناس أن حجوا بيت الله الحرام. رُوي عن ابن عباس قال: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذِّن في النَّاس بالحج، قال: رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعلي البلاغ، فنادى إبراهيم: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبُّون.

وروي عن سعيد بن جبير قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أوحى الله إليه: ان أذن في الناس بالحج، قال: فخرج فنادى في الناس: ياأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فلم يسمعه يومئذ من إنس ولا جن ولا شجر، ولا أكمة، ولا تراب ولا جبل ولا ماء، ولا شيء إلاّ قال: لبّيك اللهم لبيك.

والحج قصْد بيت الله الحرام لأداء العبادة فيه بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة. ثم قال سبحانه: ﴿يَأتوكَ رِجَالاً﴾ يأتوك مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ ويأتوك ركباناً على الإبل، وقد كانت الإبل هي أداة السفر الطويل في البرّ قبل اختراع الطائرات والسيارات ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي تأتي هذه الإبل من كل طريق ومكان بعيد.

ثم بين الله الغاية من الحج: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وإنما لم يذكر القرآن هذه المنافع ولم يحددها لكثرتها. والمنافع من الحج دينية ودنيوية، فالحج بمناسكه تمرين على طاعة الله المطلقة، وامتثال لأمره، فالحاج يتردد بين مكة ومنى وعرفات والمزدلفة يقيم ويرحل، يؤدي مناسك معدودة، وهو يلبي بقوله: (لبيك اللهم لبيك... الخ) فيكون ذلك تطبيعاً له لطاعة ربه في كافة أحواله ونيل الأجر في الآخرة.

واجتماع الحجاج بهذا الحشد الكبير الذي لا نظير له على وجه الأرض ورؤيتهم وهم يدعون ربهم ويصلون له، ويطوفون حول الكعبة، ويزحفون بالملايين إلى عرفات ووقوفهم هناك وهم يتضرعون ويذرفون الدمع خوفاً من الله وندماً على خطاياهم، وتدفق الحجاج كالسيل إلى رمي الجمرات كل هذه المشاهد مع المشاركة لهم بأداء هذه المناسك لها أثرها القوي على القلوب فتتفجر فيها ينابيع الإيمان وتغمرها مشاعر التقوى، والقلوب تحتاج إلى شحن مستمر بالطاقة الإيمانية لتصبح النفوس في منتهى الكمال الإنساني.

وفي الحج مران للنفوس على فضائل الأخلاق والسيطرة على أهوائها وغرائزها فمن مقاصد الحج التي ذكرها القرآن ﴿فَلا رَفَثَ وَلاَ فُسُوق ولا جِدال في الحج﴾ [البقرة: ١٩٧] فالرفث هو ممارسة العلاقة الجنسية والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، والجدال: هو المخاصمة الكلامية بين الناس.

ومن منافع الحج تعارف المسلمين وتوثيق الوحدة بين شعوبهم التي هي أساس قوتهم، والتشاور فيما ينفعهم، وإبرام صنوف المعاهدات بينهم من دفاعية واقتصادية وتجارية.

ومن منافع الحج تعويد المؤمنين على حياة الخشونة ومعاناة الصبر حيث تجشموا مشاق السفر وتركوا المخيط من الثياب وكفوا أنفسهم عن كل الملاذ والشهوات، وهذه الأمور تعكس فوائد جمة على الشخصية الإنسانية حيث تصقلها وتجعلها أصلب عوداً في تحمل مصائب الحياة.

ويتابع القرآن قوله: ﴿وَيَذْكُروا اسْمَ اللَّهِ في أيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أي يذكرون الله سبحانه بالحمد والثناء والتكبير في يوم عيد النحر وهو يوم عيد الأضحى والأيام الثلاثة بعده أو يومان بعده في قول آخر. وقيل: هي الأيام العشرة من ذي الحجة وآخرها يوم النحر وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشرة فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد» ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأنْعَامِ﴾ على ما رزقهم الله من الإبل والبقر والغنم ﴿فكلوا مِنْهَا وأطعِمُوا البائس الفقير﴾ فكلوا من لحومها وأطعموا البائس الذي به ضر الجوع والحاجة، والفقير الذي لا شيء له. والأمر هنا للاستحباب فيستحب للرجل أن يأكل من أضحيته ومن هديه (أي الذبائح التي يهديها إلى الحرم) وأن يتصدق بأكثرها.

أما الذبائح التي تجب على الحاج كفارة لما خالف فيه من أمور الحج، أو كانت نذراً فلا يجوز الأكل منها.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم﴾ ثم ليقضوا ما بقي عليهم من أمر الحج بالتحلل من الإحرام بحلق الرأس والعانة وشعر الإبط والتخفيف من الشارب واللحية ولبس الثياب وقص الأظافر ورمي الجمار ﴿وَلْيُوفوا نُذُورَهُمْ﴾ التي نذروها تقرباً إلى الله تعالى من أعمال البر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾ وهو المسمى طواف الزيارة أو طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج. وسمي بيت الله الحرام بالبيت العتيق، أي القديم، لأنه أول بيت

وضع للناس لعبادة الله وحده بناه آدم ثم جدد بناءه إبراهيم عليه السلام، وقيل سمي عتيقاً لأن الله اعتقه من تسلط الجبابرة عليه، وقيل: سمي عتيقاً لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي افعلوا ذلك، ومن يلتزم أوامر الله ونواهيه في مناسك الحج وغيرها تعظيماً لها في نفسه بمراعاتها والعمل بموجبها واجتناب المحرمات فهو خير له ويُثاب به عند ربه في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وقد أُحل الله لكم أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلاّ في حالات تعرفونها مما يقرأ عليكم من القرآن كأكل الميتة ولحم الخنزير وغير ذلك ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ فابتعدوا عن عبادة الأوثان لأن عبادتها قذارة عقلية ومعنوية ﴿واجتنبوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ وابتعدوا عن الكذب وشهادة الزور.

فعبادة الأوثان من باب الشرك بالله، واقتران الكذب وشهادة الزور بالشرك بالله يبين القرآن مبلغ إثمهما. وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «عدلت (أي ساوت) شهادة الزور الإشراك بالله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ واجتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ مخلصين لله مائلين إلى الإسلام ثابتين عليه غير متخذين أي شريك لله في العبادة ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّما خَرَّ مِن السَّماءِ﴾ ومن يتخذ شريكاً لله فكأنما سقط من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ﴾ أو تسقطه الرياح في مكان بعيد لا يرجى خلاصه.

تشبيه رائع شبه القرآن فيه الإيمان بالله ووحدانيته في علوه ورفعته بمن يتربع في السماء. كما شبه من اتخذ شريكاً لله بالساقط من السماء. وشبه الأهواء الباطلة التي تتنازع أفكار المشرك بالطير المختطفة لأجزاء لحمه، كما شبه الشيطان الذي يدفعه إلى الشر والضلال بالريح التي تهوي بمن عصفت به في بعض المهاوي المهلكة.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ
وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ
ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا
وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ
لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

شرح المفردات

شعائر: مفردها شعيرة وهي كل ما شرعه الله لعباده وجعله علامة رضاه.

منسكاً: متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله من ذبح الأنعام وإطعام المساكين منها.

المخبتين: الخاضعين لله بالطاعة المذعنين له بالعبودية.

وجِلَت قلوبهم: خافت هيبة من الله تعالى.

البُدْنَ: جمع بُدنه وهي الإبل المهداة إلى الحرم.

صوآفّ: قائمات على ثلاثة أرجل معقولة إحدى يديها.

وجبت جنوبها: سقطت على الأرض ميتة بعد النحر.

القانع: القانع الذي يقنع بما أعطي. أو بما عنده ولا يسأل.

المعترّ: المحتاج الذي يسأل.

صفات المقربين إلى الله

ثم تنتقل بنا الآيات دَاعية إلى تعظيم شعائر الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ذلك: أي ذلك أمر الله وشعائر الحج: معالمه ومناسكه التي يُؤمر المسلم بالقيام بها، مثل الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والهدايا من الأنعام إلى الحرم، فمن يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله والهدايا من الأنعام التي يسوقها إلى فقراء الحرم فيختارها صحيحة الجسم سمينة لا عيب فيها فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة، وعلامة من علامات الإخلاص لله. ﴿لَكُم فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي لكم في تعظيم شعائر الله منافع بالأجر والثواب في الآخرة. ولكم في الهدايا من الأنعام إلى أن تنحر منافع دنيوية فتشربون من ألبانها وتركبون الإبل ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ثم إن هذه المنافع من هذه الأنعام مستمرة إلى محل نحرها عند البيت الحرام وما يليه من الحرم إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام. أو بمعنى: إن شعائر الحج تنتهي عند البيت الحرام والطواف حوله وهو ما يُسمى بطواف الإفاضة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾ ولكل جماعة من أهل الإيمان جعلنا لهم متعبداً وقرابين يتقربون بها إلى الله عن طريق ذبح الأنعام والتصدق بلحومها ﴿لِيَذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ﴾ ليذكروا اسم الله سبحانه ويعظمونه عند ذبحها شكراً له على ما أنعم عليهم من بهائم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وإنما قيل لها بهائم لأنها لا تتكلم ﴿فَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فإلهكم إلَه واحد لا شريك له فإياه فاعبدوا وله أخلصوا، وأخضعوا له بالطاعة ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وبشر يا محمد المطمئنين بذكر الله المتواضعين الخاشعين له بما أعد الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه.

ثم وصف الله هؤلاء المخبتين: ﴿الَّذِين إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَت قُلُوبُهمْ﴾ أي إذا ذُكِرَ الله اعتراهم الخوف هيبة منه، وخوفاً من سخطه وعقوبته عند مخالفته وعصيانه، وحصول الوجل عند ذكر الله دليل على كمال يقينهم بالله وقوة إيمانهم ﴿وَالصَّابِرِينَ

عَلَى مَا أَصَابَـهُمْ﴾ من مصائب وأحزان وأمراض، ومشاق في طاعة الله ونصرة دينه ﴿والْمُقِيمي الصَّلاةِ﴾ أي الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان مع الخشوع لله تعالى ﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُـنْفِقُونَ﴾ فالمال في الأصل مال الله الذي رزقهم إياه وهم يتصدقون منه وينفقون بعضه في وجوه الخير.

﴿والْبُـدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ البدن: جمع بَدَنَة وتطلق على الإبل خاصة وبعض الأئمة أطلقها على البقر أيضاً، وهي من شعائر الله أي مناسك الحج وعلاماته وأعماله حيث تُهدى إلى الحرم وتُذبح هناك ويتصدق بلحومها على الفقراء ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْـرٌ﴾ وهو الأجر في الآخرة بنحرها والتصدق بها، وفي الدنيا بركوبها وحمل أمتعتكم عليها بجانب الاستفادة من ألبانها ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي فاذكروا اسم الله عليها عند نحركم إياها وهي مصطفة للنحر قائمة على ثلاثة قوائم معقولة إحدى يديها. وذِكْرُ الله عليها عند النحر أن يُـقال: بسم الله والله أكبر لا إلّه إلا الله، اللهم منك ولك. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الأرض وهو كناية عن موتها ﴿فَـكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِـعَ﴾ فكلوا بعضها إن أردتم وأطعموا القانع المتعفف عن السؤال ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي الذي دعته الفاقة إلى ذل السؤال ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُم﴾ أي من أجل هذا ذللها الله لكم وجعلها منقادة لكم إن شئتم ركبتم عليها، وإن شئتم استفدتم من حليبها ولحومها ﴿لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا الله على تسخيرها لكم لمنفعتكم.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا﴾ أي لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْـكُم﴾ ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله وتعظيم شعائره. وقد كان أهل الجاهلية قبل الإسلام إذا ذبحوا الأنعام لآلهتهم وضعوا على الكعبة من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فقال الله: ﴿لَنْ يَنالَ اللَّه لحومُها ولا دماؤُها﴾ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُم لِتُـكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم﴾ أي هكذا سخّر لكم البدن كي تعظموا الله على توفيقه إياكم لدينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبشر بالجنة يا محمد الذين أحسنوا في طاعة الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ
لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ
مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾

شرح المفردات

خَوّان كفور: خائن للأمانات جاحد للنعم. وخوان وكفور صيغتان للمبالغة.

صوامع: معابد رهبان النصارى.

بِيَعَ: كنائس النصارى.

صلوات: كنائس اليهود.

مساجد: أماكن العبادة عند المسلمين.

مكنّاهم في الأرض: نصر الله المؤمنين على عدوهم.

ولله عاقبة الأمور: ولله مصير أمور الخلق في الثواب والعقاب.

الإذن بالقتال للدفاع عن النفس

كان المشركون من أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله بأنواع من الأذى ليفتنوهم عن دينهم، فلا يزالون يجيئون إلى رسول الله ما بين مضروب ومشجوج ويشكون إليه حالهم فيقول لهم رسول الله محمد ﷺ: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، وكان يدعوهم إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فراراً من أذاهم فهاجر إليها الكثير من أصحابه. ثم لما اشتد أذى المشركين على رسول الله وحاولوا قتله هاجر إلى المدينة المنورة ملتحقاً بأصحابه البررة.

وما لاقاه رسول الله وأصحابه من أذى وصمودهم على دينهم هو أقوى حجة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف كما يدعي أعداؤه، فهذه النخبة من المؤمنين الذين قاسوا الاضطهاد لم يكن إيمانهم إلاّ عن عقيدة واقتناع لا عن إكراه.

وقد كان المؤمنون في المدينة المنورة في وضع مأساوي يحيط بهم الأعداء من كل جانب، ففي هذا الجو القاتم المفعم بالأخطار نزلت الآيات التالية تُطمئن المؤمنين وتأمرهم بالقتال دفاعاً عن النفس:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ودفاع الله عن المؤمنين يشمل كل نواحي الحياة فيلهمهم الله إلى ارتياد سبل النجاة ويجنبهم المخاطر والمهالك ويدافع عنهم من كيد الأعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ إن الله لا يحب كل خوان يخون الله فيخالف أمره ونهيه ويعصيه، ويخون أمته، وخوّان وكفور من صيغ المبالغة، أي المفرط في الخيانة والكفر.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ هنا يوجد حذف، أي أُذن بالقتال للمؤمنين بسبب ما نالهم من ظلم بقتال المشركين لهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وإن الله لقدير على نصر المؤمنين. فالمؤمنون الذين كانوا قلة مضطهدة في بدء الإسلام يعدهم الله بالنصر على المشركين، وقد صدق الله وعده وتحقق النصر لهم بعد سنوات قليلة من نزول هذه الآية، وقد نزل من القرآن آيات بهذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وإنّ هذا النصر الذي تحقق يشهد بأن القرآن وحي إلهي ويصدق نبوة محمد إذ لا يعلم الغيب إلا الله.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فالمشركون أرغموا المؤمنين على ترك وطنهم مكة والهجرة منها بغير حق وما كان لهم من ذنب في نظر المشركين إلاّ قولهم: ربنا الله وحده هو الذي نعبده ولا نشرك بعبادته أحداً غيره

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال أعداء الدين وتسليط المؤمنين على المشركين في كل عصر ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ والصوامع هي معابد الرهبان، والبيع هي ما معابد النصارى، والصلوات هي كنائس اليهود والمساجد هي جوامع المسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير في (فيها) يعود إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات في الآية لأن غير المساجد من بيع وكنائس يشرك فيها مع الله. أما على القول بأن الضمير يعود إلى كافة المعابد فذلك قبل أن يُغَيِّر أتباع الأديان ويبدّلوا في دين الله الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

فالنص القرآني يشير إلى حرمة جميع المعابد والدفاع عنها وعدم مسها بسوء، ولكن السؤال هل ما يجري فيها من طقوس دينية مقبولة من الله؟ الجواب عن ذلك هو أن القرآن انتقد ما في هذه المعابد من الأمورالدينية فأثبت أن أصحاب الملل التابعين لهذه المعابد قد غيروا وبدلوا في دينهم وأن بعض ما يدعونه ويعلنونه هو من الكفر الصراح ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

كما أعلن القرآن لأصحاب الملل بأنه جاءهم بالحقيقة التي ضلوا عنها وأنه أتى بإصلاح الدين مما خالطه من بدع وشوائب.

ثم يتابع القرآن قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ والله ينصر من ينصر دينه ورسوله، إن الله لقوي على نصرة من جاهد في سبيله لا يغالبه أحد من خلقه.

ثم يبين القرآن السلوك الواجب على المؤمنين بعد حصولهم على النصر وهو أنهم يؤدون شعائر الله ويقيمون صرح العدالة، لا كما يفعل غيرهم من إذلال العباد وسلبهم خيراتهم وهدم منازلهم ومعابدهم:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فالمؤمنون الذين إن نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من السيطرة على عدوهم فهم يقومون بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ والصلاة هي صلة بين الإنسان وربه فهي تطهر نفوس المؤمنين وتنهاهم عن الفحشاء والمنكر.

٢ ـ ﴿آتَـوُا الزَّكَاةَ﴾ والزكاة هي حصة من المال تفرض على الأغنياء بالنسبة لأموالهم للإنفاق على الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوي الحاجة وبهذا تتحقق العدالة الاجتماعية.

٣ ـ ﴿وأَمَـرُوا بالْمعروفِ﴾ والمعروف اسم لكل فِعْلٍ يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه، فالمعروف كلمة جامعة لكل أعمال الخير.

٤ ـ ﴿وَنَـهَوْا عَنِ الْمنكَرِ﴾ والمنكر هو كل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه وهو ضد المعروف. فالمؤمنون يدعون الناس إلى الخير وينهونهم عن الشر والفساد إذا تمكنوا من السيطرة على بلد ما. هذه هي المثالية التي دعا القرآن إليها وهي مما لا نجدها في أي فلسفة أو مذهب أخلاقي، ثم يختم الله هذه الآيات: ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَـةُ الأُمُورِ﴾ ولله مصير أمور الخلق فيثيب من أطاعه بحسن الجزاء ويعاقب من يعصيه بِعَذَابِ يَوْم القيامة.



وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ
لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن
تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ
وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ
لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

شرح المفردات

فأمليت: الإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة بعد ذلك.

فكأيّن: اسم يفيد كثرة العدد.

نكير: إنكاري عليهم بإبدالهم النعمة نقمة والعمران خراباً.

فهي خاوية: ساقطة.

على عروشها: على سقوفها.

بئر معطلة: متروكة بموت أهلها.

قصر مشيد: قصر رفيع أو مجصص.

أخذتها: عاقبتها بالعذاب.

إنذار للكفار بالهلاك

ثم تأتي الآيات التالية وفيها يواسي الله رسولَهُ محمداً بسبب ما كان يقاسيه من آلام واضطهاد من قومه:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وَثَمُودُ﴾ وإذا كنت تلاقي يا محمد تكذيباً وإيذاء من قومك فلا تحزن، وتأمل في تاريخ الأنبياء قبلك فقد كذب قوم نوح نبيهم نوحاً، وكذّب قوم عاد نبيهم هوداً، وكذبت ثمود نبيهم صالحاً ﴿وَقَوْمُ إبراهيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وكذّب قوم إبراهيم نبيهم إبراهيم كما كذّب قوم لوط نبيهم لوطاً ﴿وأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كما كذَّب أهل مدين نبيهم شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ وكذب فرعون وقومه نبيهم موسى. تأمل كيف أن القرآن لم يقل قوم موسى كما ذكر عن الأنبياء قبله لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط وفرعون وآله ﴿فَأَمْلَيْتُ للكافرين﴾ أي أمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب والهلاك فكيف كان إنكاري عليهم حيث أبدلتهم بالنعم عليهم زوالاً لها، وبالحياة هلاكاً لهم، وبعمارة بلدانهم خراباً.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكثير من القرى أهلكنا أهلها وهي ظالمة بسبب تكذيبها لرسل الله واضطهادها لهم ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ والخاوية هي الساقطة وعروشها هي سقوفها، أي سقطت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف. وتأتي خاوية بمعنى خالية. أي خالية من أهلها لهلاكهم مع بقاء عروشها وسلامتها.

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ وبئر مهجورة لا يستقي منها أحد لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وقصر مهجور أيضاً لهلاك ساكنيه. ومعنى مشيد: أي مطلي بالجص. وقيل هو المرفوع البنيان. ثم يدعو القرآن كفار مكة إلى الاعتبار بمن كان قبلهم من الأمم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ﴾ أي أفلم يسافر كفار مكة في الأرض ليشاهدوا آثار من كان قبلهم من الأمم الذين أهلكهم الله جزاء كفرهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلونَ بِهَا﴾

فيكون لهم من ذلك العبرة فتستيقظ قلوبهم من غفلتها وتتفكر فيما جئت به يا محمد من الهدى. وقد أسند القرآن الفكر إلى القلب بينما محله الدماغ لأن القلب هو الذي يمد الدماغ بالدم والحياة، ويعبر عن القلب بأنه مركز الأحاسيس الإنسانية العاطفية ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ فيقلعوا عن كفرهم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي لكنهم لم ينظروا ولم يعتبروا بما أصاب قبلهم من الأمم، لا لأنهم عُمي البصر وإنما هم عُمي البصائر، فليس الخلل في حواسّهم وإنما الخلل في عقولهم التي لا تدرك الحق ولا تعتبر بما تشاهده.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويستعجلك يا محمد هؤلاء الكفارُ بمجيء العذاب الذي حذرتهم منه إنكاراً منهم واستهزاء بمجيئه ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وقد وعد الله بنزول العذاب فيهم وما وعد به كائن لا محالة ولكن في موعدٍ قدَّره الله في الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وإن يوماً عند الله يساوي ألف سنة مما تقدِّرون وتحسبون من الزمن. هذه الآية قررت أن الزمن نسبي وهو ما توصل إليه العلم واعتبره من منجزاته.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكثير من أهل القرى أمهلتهم ولم أعاجلهم بالعقاب مع استمرار ظلمهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ثم أخذتها بالعذاب والهلاك، وإليّ مرجع جميع الخلق فأجازيهم بما عملوا يوم القيامة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قل يا محمد لكفار مكة ليس من مهمتي أن أجازيكم على أعمالكم وإنما أنا محذركم ومخوفكم من عقاب الله تحذيراً واضحاً.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالذين صدقوا بوحدانية الله وبرسوله محمد وعملوا بما دعاهم إليه من الأعمال الصالحة لهم مغفرة من ربهم لما سبق من سيئاتهم ولهم رزق كريم في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين اجتهدوا في صد الناس عن آيات

القرآن وقالوا: إنها سحر، وأساطير الأولين مغالين لرسول الله ليقهروه ﴿**أولئك أصحاب الجحيم**﴾ أولئك ملازمو النار، وشبههم بأصحاب الجحيم كما يكون الصاحب الملازم لصاحبه دائماً في صحبته.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾
لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾
وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

شرح المفردات

تمنّى: قرأ الآيات المنزلة عليه.

أمنيته: قراءته.

فينسخ: يبطل ويزيل.

يُحْكِمُ الله آياته: يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال.

فتنة: ابتلاء واختباراً.

شقاق بعيد: عداوة شديدة.

فَتُخْبِتَ له قلوبهم: تطمئن وتسكن وتخضع.

في مِرْيَة: في شك.

يوم عقيم: يوم لا خير فيه ولا يوم بعده وهو يوم القيامة.

مهين: مذل.

إلقاء الشبهات على دين الله

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر مؤامرات الكفار على آيات القرآن وإلقاء الشبه والأباطيل حولها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول من رسلنا ولا نبي من أنبيائنا إلاّ إذا تلى وقرأ كتاب الله على قومه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّتِهِ﴾ وكلما قرأ عليهم كتاب الله تصدى له شياطين الإنس والجنّ لتشكيك الناس فيما يتلوه من كتاب الله ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطل الله ما يلقون من الشبهات ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم يثبت الله آياته بأن يقيض للدين من يدافع عنه ويدحض الشبهات، والله عليم بكل شيء، حكيم في أفعاله.

هذا ما كان في الماضي وما أشبه اليومَ بالبارحة حيث دَأَب أعداء الإسلام إلى إلقاء الشبهات على القرآن وتأويل آياته تأويلاً يؤيد مقاصدهم الخبيثة ولكن محاولاتهم باءت بالفشل وظلت آيات الله محكمة ثابتة شاهدة على بطلان أكاذيبهم.

﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ وإذا مكن الله المتمردين على الحق من شياطين الإنس والجنّ من إلقاء الشبه على دعوة الإسلام فإنما يكون ذلك امتحاناً واختباراً ﴿لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ وهم المنافقون ﴿وَالقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ وهم الكافرون الذين جحدوا نبوة محمد ﴿وَإنَّ الظَّالِمِينَ لفي شِقَاقٍ بَعيدٍ﴾ وإن هؤلاء الظالمين من المنافقين والكفار لفي خلافٍ وعداوةٍ شديدةٍ مع النبي والمؤمنين، وبُعدٍ عن الحق والصواب.

﴿وَلِيَعلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي ولكي يعلم أهل العلم بشرع الله أن الذي أنزله الله على رسوله محمد هو الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فيصدّقوا به فتطمئن له قلوبهم وتخضع ﴿وَإنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدقوا برسوله محمد إلى طريق قويم يوصلهم إلى مرضاته بالعمل بأوامره الذي يوصلهم إلى نعيم الآخرة.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا في مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ ولا يزال الذين كفروا في شك من أمر هذا القرآن أو في نبوة محمد ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى يأتيهم الوقت الذي تقوم به

القيامة فجأة ﴿أَو يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم القيامة الذي لا خير فيه ولا ثمرة ترجى منه. ولفظ عقيم يطلق على المرأة التي لا تلد، وهنا استعير هذا اللفظ ليوم القيامة الذي لا يوم بعده من أيام الدنيا.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُم﴾ السلطان والتصرف المطلق لله وحده يوم القيامة يحكم بينهم بالحق ويجازي كل إنسان على عمله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فالذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد وعملوا الأعمال الصالحة التي دعا إليها القرآن، هؤلاء في الآخرة لهم جنات تتوافر فيها كل صنوف النعيم ﴿وَالَّذِين كَفَرُوا وَكَذَّبوا بآيَاتِنَا﴾ والذين جحدوا وكذّبوا بآيات القرآن ﴿فَأُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فأولئك لهم عند ربهم عذاب مُذِلّ في جهنم.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

شرح المفردات

هاجروا في سبيل الله: تركوا أوطانهم في طاعة الله من مكة إلى المدينة المنورة.

رزقاً حسناً: وهو الجنة.

بغي عليه: ظلم.

يولج: يدخل.

بشرى للمهاجرين

ثم يبشر الله المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة فراراً من اضطهاد قريش بالثواب الجزيل:

﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي والذين تركوا أوطانهم لإعلاء شأن دينهم وفي سبيل رضاء الله وطاعته ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أو مَاتُوا﴾ ثم قتلوا في ميدان الجهاد أو ماتوا على فراشهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ليرزقنهم الله يوم القيامة الثواب الجزيل بإدخالهم الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وإن الله لهو خير من يعطي الثواب الجزيل.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ وليدخل الله هؤلاء المهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا جنات النعيم يكرمون فيها بما يرضونه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وإن الله لعليم بأعمالهم، حليم لا يعاجل أعداءهم بالعقوبة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ ذلك شأننا في مجازاة الناس، والمؤمن الذي يقتص ممن جنى عليه ويجازيه بمثل اعتدائه دون زيادة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي ثم يتمادى الجاني في الاعتداء على المؤمن بعد ذلك فإن الله سينصره على من اعتدى عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وإن الله يصفح عن المؤمنين ذنوبهم ويغفر لهم خطأهم حيث قاتلوا الكفار في الشهر الحرام. وفي ذلك تعريض بالحث على العفو والصفح فإن الله مع كمال قدرته على الانتقام يعفو فغيره أولى بذلك.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله يُولِجُ اللَيْلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَيْلِ﴾ ذلك النصر من الله هو أنه قادر على كل شيء فهو سبحانه يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل فيتعاقبان وذلك من تأثر دوران الأرض حول نفسها، كما يتفاوت طول الليل وطول النهار حسب الفصول الأربعة من تأثير دوران الأرض حول الشمس، هذا الدوران للأرض حول نفسها وحول الشمس هو من أثر القدرة الإلهية ﴿وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بأعمالهم لا تخفى عليه خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾ ذلك التصرف من الله في الكون مرجعه بأن الله هو الإله الحق لا إلَه غيره ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ﴾ وأن ما يعبدون من الآلهة هو الباطل لأنها لا تقدر على أي شيء ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ وأن الله فوق كل شيء وهو الكبير على أن يكون له شريك، إذ لا شيء أعلى منه شأناً ولا أكبر سلطاناً.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

فضل الله على عباده

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر بعض نعم الله على عباده التي تشهد بعظم قدرته ووحدانيته: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب ان الله أنزل من السحاب المطر ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فتصبح الأرض مخضرة بالنبات بعد أن كانت يابسة مجدبة، تأمل كلمة ﴿فَتُصْبِحُ﴾ جاءت بصيغة فعل المضارع التي تفيد الاستمرار وإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إن الله رفيق بعباده خبير بمصالح خلقه ومنافعهم ﴿لَهُ ما فِي السَّمٰوات والأَرْض﴾ له سبحانه ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ وهو سبحانه غني عن عباده المستحق للحمد والثناء بتمجيده وتعظيمه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْر بِأَمْرِه﴾ أي ألم

تَعْلَم أن الله ذلَّل للناس ما في الأرض من حيوان ونبات وجماد ليتفعوا بها، وهيأ لهم البحر فتسير فيه السفن بمشيئته ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ والسماء هي كل ما علانا وتشمل الكواكب والنجوم والمذنبات فقد أمسكها الله بقدرته وبما وضع لها من نظام الجاذبية حتى لا يختل نظامها أو ترتطم بالأرض فتدمرها إلاّ إذا اقتضت إرادته ذلك ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه واسع الرأفة والرحمة بالناس فيهيىء لهم كل أسباب الحياة الطيبة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وهو الله سبحانه وهب لكم الحياة أيها الناس بعد أن كنتم في حكم العدم، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ثم يعيد لكم الحياة يوم البعث لمجازاتكم على أعمالكم ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ إن الإنسان لكثير الجحود لنعم الله عليه لا يقوم بواجب العبادة والشكر لخالقه، والمراد: جنس الإنسان المتمادي في كفره.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾
ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

شرح المفردات

منسكاً: شريعة ومنهاجاً.
هم ناسكوه: عاملون به.

دعوة أتباع الملل إلى الإسلام

ثم يبيّن القرآن بأن لكل أمة شريعةً خاصةً: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي لكل جماعة من الناس ولكل قوم من الأقوام شريعة هم يعملون بها. فالأمة التي كانت من بعثة موسى عليه السلام إلى بعثة عيسى عليه السلام منسكهم (أي شريعتهم) هي التوراة ومن بعثة عيسى عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ منسكهم الإنجيل. ومن بعثة محمد ﷺ إلى يوم القيامة منسكهم القرآن. ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ فلا ينازعنك يا محمد هؤلاء الأمم في أمر دينك زعماً منهم أن شريعتهم باقية لم تنسخ، فإن التوراة والإنجيل شريعتان لمن مضى من الأمم قبل بعثة محمد ﷺ ومن وقت بعثته انتسخ كل شرع سوى الشرع الذي جاء به محمد من عند الله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادع يا محمد هذه الملل جميعها إلى شريعتك ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ إنك على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، يرشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن أبوا إلا الجدال عن طريق المخاصمة فيما دعوتهم إليه من الدين الذي أوحاه الله إليك فدع أمرهم إلى الله وقل لهم: الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من الجزاء. ﴿الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الله يقضي بينكم يوم القيامة فيما اختلفتم فيه من أمور دينكم فيثيب المهتدي ويعاقب الضال.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ والأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقرير، أي قد علمت يا محمد أن الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إن علمه في ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ لا يعلم حقيقته إلا الله ويوصف بأنه مستودع ما كان ويكون مما يعلمه الله. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ إن علم الله بجميع ذلك سهل هيِّن عليه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ
أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

شرح المفردات

ويعبدون من دون الله: أي يعبدون غير الله.
سلطاناً: أي حجة وبرهاناً.
بيّنات: واضحات الدلالة على كونها من عند الله.
المنكر: الكراهة والعبوس.
يسطون: يبطشون بهم من شدة الغيظ.

بطلان عبادة غير الله

ثم تنتقل بنا الآيات إلى الكلام عن عبدة الأصنام: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ أي ويعبد المشركون غير الله أصناماً لم يأتِ بعبادتها حجة في كتاب سماوي منزل من عند الله ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا حملهم على عبادتها أي دليل عقلي بأنها آلهة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وليس للظالمين بعبادتهم غير الله من ناصر ينصرهم يوم القيامة ويرفع عنهم عذاب الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا تلا أحد على مسامع المشركين آيات القرآن واضحة الأدلة على عبادة الله وحده وعلى بطلان عبادة الأصنام ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ تلحظ في وجوههم الحنق والغيظ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِم آيَاتِنَا﴾ أي يكادون من شدة غيظهم يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آيات القرآن ﴿قُلْ أَفأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُم النَّارُ وَعَدَها اللهُ الَّذِين كَفَرُوا﴾ أي قل لهم يا محمد على وجه الوعيد والتقريع: أفأخبركم بشيء هو أشد عليكم شراً من الغيظ الذي يحرق نفوسكم هي النار التي وعدكم بها يوم القيامة جزاء كفركم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وبئس النار مصيراً ومقاماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ
مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

تسفيه عبادة الأصنام

ثم يقدم لنا القرآن مثالاً في غاية في الروعة على بطلان عبادة الأصنام:

﴿يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ يا أيها الناس إنّا نبين لكم حالة في الغرابة هي حقيقة بأن تسمى مثلاً، فاستمعوا لهذا المثل استماع تدبر وتفكر ﴿إنَّ الَّذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي إن الذين تعبدون من غير الله وهي الأصنام لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا وتعاونوا على ذلك، هذا إذا كانوا مجتمعين فكيف إذا كانوا منفردين، ولقد ضرب الله المثل بالذباب لمهانته وضعفه وتقذارته. والخطاب في الآية وإن كان لأهل مكة إلاَّ أن المراد به عموم من كان يعبد الأصنام ﴿وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ﴾ فكأن الله يقول: أترُكُ أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منهم شيئاً فهي لا تقدر على استنقاذ الشيء من الذباب. وقد رُوِي أنهم كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران ورؤوسها بالعسل فإذا سلبهم الذباب شيئاً عجزت الأصنام عن استرداده. والعجز يسري حتى على العقلاء فإذا سلب الذباب شيئاً يسكب عليه لعاباً بمجرد أن يأخذه ويحوله إلى مادة أخرى ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ضعف الصنم باسترداد ما سلب منه وضعف المطلوب وهو الذباب، وقيل المقصود بالطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم.

﴿مَا قَـدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته وما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام شركاء الله في العبادة ﴿إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إن الله لقوي على خلق كل شيء غالب ينتقم من أعدائه، لا يغالبه أحد بخلاف آلهة المشركين فإنها جماد ولا تنفع ولا تضر ولا تقدر على شيء.

﴿الله يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ ويختار رسلاً من البشر كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وهذا ردٌّ على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول إلى الناس من البشر ﴿إنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إن الله سميع لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمال الناس ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أيْدِيهِم﴾ أي يعلم الله علماً تاماً بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين من عباد الله ما مضى من أعمالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾ وإلى الله يوم القيامة مرجع أمور الخلق كلِّها، فلا أمر ولا نهي لأحد سواه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا
جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ
وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

شرح المفردات

حق جهاده: أي جهاداً حقاً خالصاً لوجه الله.
هو اجتباكم: هو اختاركم لدينه وعبادته ونصرته.
حرج: ضيق بتكليفكم بما يشق عليكم ويعسر.
مولاكم: ناصركم ومتولي أموركم.

نداء للأمة الإسلامية

ثم يخاطب الله أمة الإسلام بهذا الخطاب التي يتركز فيه معنى العبودية لله والتحلي بالفضائل والقيم السامية التي تسعد البشرية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا ارْكَعُوا واسْجُدوا﴾ أي صلّوا الصلاة التي شرعها لكم، وقد كان الناس أول إسلامهم يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، فكان ذكرهما جارياً مجرى ذِكْرِ الصلاة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تشركوا بعبادته أحداً، والعبادة تشمل الفرائض كلها التي أوجبها الله على عباده وتزيد عليها كل عمل يعمله الإنسان يبتغي به وجه الله، فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب إلى الله وابتغى به وجهه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ والخير كلمة جامعة تشمل صلة الرحم ومكارم الأخلاق والصدقة على الفقراء وحسن الخلق مع الناس ﴿لعلَّكُم تُفْلِحُون﴾ لتفوزوا بنعيم الآخرة. و(لعل) كلمة تحمل معنى الرجاء. والإنسان قلما يخلو في أداء فرائض الله وفعل الخير من تقصير، وهو ليس على يقين من أنّ الذي أتى به مقبولٌ عند الله فكان التعبير بكلمة ﴿لَعَلَّكُم﴾ التي فيها الرجاء من الله بقبول عمله.

﴿وَجَاهِدُوا في الله حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله بأنفسكم وألسنتكم وأموالكم، والجهاد لغة: محاربة الأعداء وبذل ما في الوسع والطاقة في ذلك. والجهاد على أنواع:

مجاهدة العدو الظاهر الذي يقاتل المسلمين.

ومجاهدة الشيطان الذي يأمر بالفحشاء.

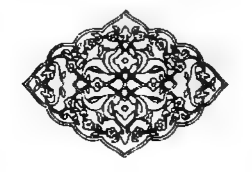
ومجاهدة هوى النفس، فقد رجع النبي ﷺ من إحدى الغزوات وقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، يقصد به جهاد النفس.

ومعنى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً خالصاً لوجه الله ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ هو اختاركم لدينه ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وما جعل عليكم في أوامر الدين

من ضيق وما كلفكم ما لا تطيقون. وقد جاء في القرآن بما يؤيد هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ الله بِكُم اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول النبي ﷺ: «إنَّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ ولن يشادَّ الدينَ أحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ».

وعلى هذا فمن لم يستطع الصلاة قائماً صلى قاعداً، ومن لم يستطع الصوم أفطر وقضى أو أخرج الفدية، كما قد شرع الكفارات لمن أخطأ في العبادات وشرع الديات في الجرائم لمن أراد العفو من أولياء القتيل.

﴿مِلَّة أبيكم إبراهيمَ﴾ والملة هي الدِّين، أي دينكم أيها المسلمون هو نفس دين إبراهيم عليه السلام القائم على عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام وإنما جعل الله إبراهيم أبا العرب لأن النبي محمد ﷺ ينحدر نسبه من إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، ومحمد هو كالأب لأمته، فالأبوة هنا أبوة دين ومنهاج ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي الله سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن في الكتب التي أنزلها على رسله ﴿وفي هَذَا﴾ أي وفي القرآن سماكم الله يا أتباع محمد مسلمين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ ليكون الرسول محمد يوم القيامة شاهداً عليكم بأنه بلغكم شرع الله ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس﴾ وتكونوا شهداء على الناس في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ﴾ فأدوا الصلاة المفروضة لله عليكم واعطوا الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم لمستحقيها ﴿وَاعْتَصِمُوا بالله﴾ أي ثقوا بالله في كل أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلاّ منه ﴿هُوَ مَوْلاكُم﴾ هو سبحانه ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نعم الله المتولي أموركم ونعم الناصر ولا ناصر لكم سواه.





سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

تعريف بسورة المؤمنون

سميت هذه السورة بـ (سورة المؤمنون) لما ذكرت من صفاتهم التي يتحلون بها وما أعد الله لهم من جزيل الثواب والنعيم في الآخرة.

ثم ذكرت السورة الدلائل على وجود الله ووحدانيته وقدرته الباهرة المتمثلة بخلقه للإنسان وتطوره في الرحم إلى أن يصبح بشراً سوياً، وخلقه سبحانه للسماوات وإنزاله للمطر لإنبات صنوف الثمار التي يقتات منها الإنسان، وَخَلْقِهِ سبحانه للأنعام ذات المنافع الكثيرة للإنسان.

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبياء كقصة نوح وصالح وموسى وهارون وما حلّ بقومهم من هلاك وخسران جزاء تكذيبهم لهم وإصرارهم على الكفر وفي هذا مواساة لرسول الله محمد ﷺ وما كان يلقاه من أذى من قومه. هذا مع الإشارة إلى عيسى وأمه مريم، ودعوة الرسل والمؤمنين إلى الأكل من الطيبات والعمل الصالح وبيان وحدة الرسالة الإلهية.

وفي السورة مناقشة لكفار مكة ودعوتهم بالعقل والحوار إلى التصديق بنبوة محمد ﷺ وإثبات البعث ووحدانية الله بالبرهان الجلي الواضح.

وفي السورة أيضاً بيان مصير الكفار وهم يُعذبون في جهنم مع توبيخهم على ما فعلوه في دنياهم من أذى للمؤمنين.

وهناك بعض الوقائع والأحداث سيأتي ذكرها في هذه السورة ولم نشر إليها خوفاً من التطويل.



بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

شرح المفردات

أفلح: فاز وظفر بالمراد.

خاشعون: متذللون لله خائفون منه.

اللغو: ما لا فائدة منه من قول أو فعل ولا يحصل منه على نفع.

لفروجهم حافظون: الفرج سوءة الرجل والمرأة. وحفظ الفرج التعفف عن الزنا.

ملكت أيمانهم: تملكهم الإماء، والإماء، جمع أَمَة وهي المرأة المملوكة.

العادون: المعتدون المجاوزون حدود الشرع.

راعون: حافظون.

الفردوس: أعلى الجنة.

صفات المؤمنين

يبتدأ الله هذه السورة ببيان صفات المؤمنين الفائزين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد: حرف يفيد التحقيق، والفلاح هو الفوز بالمرام والنجاة من المكروه، أي تحقق فوز المؤمنين بمطلوبهم في الآخرة ونجاتهم مما يكرهون. والمؤمنون: هم الذين صدَّقوا بنبوة محمد ﷺ وبما جاء به من شريعة الله. والإخبار عن فلاح المؤمنين بصيغة الفعل الماضي للدلالة على تحقق فوزهم لا محالة.

﴿الَّذِين هُمْ في صَلاتِهِم خَاشِعُونَ﴾ والخشوع هو الضراعة والخوف والتذلل لله ويستتبع الخشوع سكون الجوارح، فيكون الخاشع في الصلاة ناظراً إلى موضع سجوده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً معرضاً عما سوى الله، متدبراً فيما يجري على لسانه من قراءة القرآن وَذِكْرِ الله.

﴿والَّذين هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ واللغو: هو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ولا يحصل منه على نفع، كالهزل واللعب والمزاح غير المشروع، وضياع الأوقات بدون فائدة، والتوغل في الشهوات والكلام القبيح، وغير ذلك مما نهى الله عنه. والإعراض عن اللغو: صد النفس عنه وتجاوزه واجتنابه، فالمؤمنون حياتهم محفوفة بالعمل المفيد المثمر، لا يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع منه ولا فائدة.

﴿والَّذِين هُم للزَّكَاةِ فَاعِلونَ﴾ والزكاة هي الحصة من المال التي يدفعها المؤمنون للفقراء والمساكين وغيرهم ممن يستحقون الزكاة، وبهذا تحقق الزكاة التكافل الاجتماعي وتجنب المجتمع الثورات والقلاقل التي يولدها الفقر والحرمان.

﴿والَّذِين هُمْ لِفُروجِهِم حَافِظُونَ﴾ والفروج جمع فَرْج، وهو سوءة الرجل والمرأة، وحفظ الفرج هو التعفف عن الزنا. ﴿إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِم أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي أن المؤمنين يقصرون علاقتهم الجنسية على أزواجهم. أو ما ملكت أيمانهم: وهن الرقيقات المملوكات ويطلق عليهن الإماء والجواري. والآية بصدد الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز لها أن تستمتع بفرج مملوكها ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومينَ﴾ أي من

أقتصر بعلاقته الجنسية على زوجته وما يملك من الإماء فلا لوم عليه ولا حرج ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾ أي ومن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء بالزنا فأولئك هم المتناهون في العدوان المتجاوزون لحدود الله.

أما ما يثار من الكلام حول الإستمتاع بالأمة، فقد كان الرق شائعاً في العالم عند مجيء الإسلام، وكانت الرقيقة مستباحة للجميع في الاستمتاع بها جنسياً فحصر الإسلام ذلك في من يملكها فقط، ولكن بالرغم من ذلك شرع كثيراً من الأمور لتحريرها، فإذا ولدت من سيدها ولداً أصبحت حرة بعد وفاة سيدها، كما جعل الإسلام حصة من الزكاة لتصرف في تحرير الأرقاء، كما جعل الكثير من الكفّارات التي يُكفِّر بها المؤمن عن أخطائه في العبادات وغيرها عن طريق عتق الأرقاء.

والزنا أصبح اليوم في أواخر القرن العشرين آفة المجتمعات البشرية ونشأ عنه الملايين من اللقطاء الذين أصبحوا عبئاً على الدولة التي تعيلهم، مع ما يستتبع ذلك من مشاكل اجتماعية، كما أن المرأة هي الضحية في حالة الزنا، وبالأخص عندما تحمل في أحشائها ثمرة العلاقة الجنسية الآثمة، فكثيراً ما يتخلى شريكها في الزنا عنها أو ينكر أبوة ولدها فتتحمل هي وحدها عبء تربية ولدها. وكثيراً ما يؤدي زنا أحد الزوجين إلى أخطار جمة فلربما قتل الزوج زوجته أو شريكها في الزنا، أو بالعكس وأخطر مآسي الزنا هو اختلاط الأنساب، فلربما تزوج الإنسان أخته وهو لا يدري نسبها. وأخيراً نذكر أن الزنا هو السبيل إلى انتقال الأمراض الجنسية إلى الأصحاء ومضاعفاتها الخطيرة، وأخطر هذه الأمراض هو مرض فقدان المناعة المكتسبة (السيدا) وهذا المرض يؤدي إلى الموت ولم ينفع له علاج حتى الآن. فالمجتمع الذي يجتنب الزنا هو مجتمع فائز بعيد عن كل الأخطار التي تهدده.

﴿والَّذين هُمْ لِأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والأمانة هي كل ما يُؤتمن عليه الإنسان سواء نحو ربه كالتكاليف الشرعية، أو نحو الناس كودائع الأموال، والعهد هو كل ما التزمه الإنسان نحو ربه كالعبادات والنذور، أو نحو الناس كالعقود والوعود والمعاهدات، فالمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة على وجهها الكامل وإذا عاهدوا لم يغدروا ولم ينكثوا العهد.

﴿والَّذين هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ أي والذين يواظبون على الصلاة ويؤدونها كاملة في أوقاتها مستوفية أركانها وشروطها. وقد افتتح الله ذكر صفات المؤمنين بالصلاة واختتمها بالصلاة لأهميتها وعظيم فضلها. فالصلاة توثِّق الإنسان بخالقه وتذكِّره دوماً بأنه محاسب على أعماله يوم القيامة فترتدع نفسه عن كل ما نهاه الله عنه وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إنَّ الصَّلاة تنهى عَنِ الفَحْشَاءِ والمنْكَرِ﴾ كما أن الصلاة وما فيها من دعاء واتصال بالله تقوي قلب الإنسان عند المحن والمصائب وهذا ما ذكره القرآن ﴿ياأَيُّهَا الذين آمنوا اسْتَعِينوا بالصَّبْر وَالصَّلاةِ إنَّ الله مَعَ الصَّابرين﴾[البقرة: ١٥٣].

﴿أولَئِكَ هُمُ الوَارِثونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ وأصل الإرث أخذ الشيء عن الغير من غير عقد بيع ولا هبة ولا غير ذلك ثم استعمل في مطلق استحقاق الشيء أي أولئك المتصفون بهذه الخلال المذكورة هم الوارثون الذين يرثون أعلى منازل الجنة الخالدون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون، وقد عبّر القرآن بالإرث دون الاستحقاق لأن الإرث مُلك دائم.

هذه الآيات التي ذكرناها ورد في فضلها ما روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسول الله الوحي يُسمع عند وجهه كدويّ النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللّهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا ثم قال: لقد أُنزل عليّ عشر آيات من أقامهن[1] دخل الجنة ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم عشر آيات.

(١) أقامهن: عمل بهن ولم يخالف ما فيهن.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا
فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ
إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

شرح المفردات

سُلالة: الخلاصة التي استخرجت من غيرها.

نطفة: ماء الرجل والمرأة أي مَنِيُّهما.

قرار مكين: أي مستقر حصين وهو الرحم.

علَقَة: القطعة الجامدة من الدم.

مضْغَة: القطعة من اللحم الشبيهة بما مضغت في الفم.

فتبارك الله: فتعالى وتكاثر خيره وإحسانه.

تُبعثون: البعث إحياء الله الموتى يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

روعة خلق الإنسان

ثم ينتقل القرآن إلى بيان عظمة القدرة الإلهية المتمثلة بخلق الإنسان والمراحل التي تقلَّب فيها قبل أن يُصبح بشراً كامل الخلقة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فالإنسان خلقه الله من سلالة من طين، والسلالة هي انتزاع الشيء وإخراجه في رفق. فهذه السلالة انتزعت عن طريق التغذية التي أصلها الطين، والطين هو الماء والتراب. أما إن أصل الإنسان من الماء والتراب فذلك ما يؤيده الواقع؛ فلو أخذت قطعة من جسم الإنسان وأجريت عليها عملية التحاليل لوجدتها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض بالإضافة إلى الماء.

ثم يقول تعالى بعد ذلك عن خلق الإنسان: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ﴾

والمراد بالنطفة في الآية هو منيّ الرجل الذي يحتوي على ملايين الحيات المنوية وأحدى هذه الحيات المنوية هي التي تُلقِّح بويضة الأنثى الموجودة في الرحم وهنا تكون أول عملية تكوين الجنين.

ورحم المرأة وصفه القرآن بأنه ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ والقرار هو المستقر والمكين أي متمكن وثابت لا يتزحزح عن موضعه. هذا الوصف يبرز حقيقةً علميةً؛ لأن رحم المرأة موضوع في حوضها الذي يحمي الرحم من كل عدوان خارجي، فالحوض هو مجموعة عظام متصلة بعضها ببعض اتصالاً دقيقاً محكماً فيكون مثل الصندوق يحفظ للمرأة أجهزتها التناسلية. ثم إن هناك عضلات الحوض التي تحفظ الرحم، بالإضافة إلى نسيج ليفي غشائي يحيط بأعضاء الحوض وأوعيته تعرف بالأربطة تحفظ الرحم في مكانه الطبيعي.

ثم يأتي الطور الثاني من تكوين الجنين وهو الذي سمَّاه الله: علقة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ والعلقة في ما ذكره المفسرون: الدم الجامد، والعلقة في اللغة تطلق على كل ما ينشب ويعلق. فبويضة الأنثى الملقَّحة بالحيوان المنوي للرجل تبدأ بالانقسام وتتضاعف خلاياها ولا تمر سبعة أيام إلاّ وقد صارت مثل ثمرة التوتة فتنشب وتعلق بجدار الرحم، ولهذا سميت علقة.

ثم يأتي الطور الثالث من تكوين الجنين حيث وصفه الله ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وطور المضغة يبدأ من الأسبوع الثالث من حياة الجنين وخلاله تظهر في الجنين الكتل البدنية فتعطيه شكل اللحم الممضوغ الذي لاكته الألسن.

ثم يأتي الطور الرابع من تُخلُّق الجنين وفيه تتكون العظام وهي مرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع حيث يتحول قسم من الكتل البدنية التي أعطت الجنين شكل المضغة من أنسجة غضروفية إلى أنسجة عظمية لتشكل العمود الفقري وبقية الهيكل العظمي وهذا ما ذكره القرآن: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾.

ثم يأتي بعد ذلك الطور الخامس الذي يبدأ من الأسبوع الثامن من الحمل حيث

يتحول القسم الباقي من الكتل البدنية إلى عضلات تكسو العمود الفقري وعظام الأطراف. وهذا ما أعلنه القرآن: ﴿فَكَسَوْنَا العِظَامَ لحماً﴾ فالعظام يبدأ تكوينها قبل العضلات.

وأخيراً يأتي الطور السادس من تكوين الجنين وهو إعطاؤه الشكل الإنساني وقد بيّن علم الإجنة أن مختلف الأجنة عند الحيوانات ذات العظام الفقرية تمر في مرحلة معينة من تطورها لا يستطيع أي عالم أجنة أن يفرق فيما بينها في الشكل حتى الأسبوع السابع أو الثامن وبعد ذلك يأخذ الجنين عند الإنسان شكله الإنساني الذي يميزه عن بقية أجنة الحيوانات ذات العظام الفقرية وهنا يكمن الإعجاز العلمي في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾.

أمام هذه الحقائق التي ذكرها القرآن عن خلق الإنسان لا نملك إلا أن نردد ما جاء في آخر هذه الآيات ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ أي تعالى الله وتعاظم وتقدس فهو سبحانه أحسن الصانعين صنعاً.

من هذا كله يتبين لنا بوضوح أن أطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي اكتشفها العلم حديثاً، ألا يكفي ذلك دليلاً وبرهاناً ساطعاً على أن القرآن وحي إلهي وأن محمداً رسول الله حقاً.

ثم يبين القرآن مآل الإنسان ﴿ثم إنَّكُم بَعْدَ ذَلِك لَمَيِّتُون﴾ أي ثم إنكم بعد هذه الخلقة والعمر المقدر لكم في دنياكم لصائرون إلى الموت ﴿ثم إنَّكُم يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون من قبوركم أحياءً للمجازاة على أعمالكم.



وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ
جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ
مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

شرح المفردات

سَبْعَ طَرَائِقَ: سبع سماوات.
بِقَدَرٍ: بمقدار معين.
جَنات: بساتين.
طور سيناء: هو جبل الطور الذي ناجى عليه موسى ربه.
بالدهن: أي بالزيت.
وصِبْغ: سمي الزيت صبغاً لأن الخبز يصبغ به عندما يغمس فيه.
الأنعام: الإبل والبقر والغنم والماعز.

من فضل الله على الناس

ثم يبين الله بعضاً من نعمه على الناس بما يستوجب عبادته وحده:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ والطرائق هي السماوات وسميت بذلك لأن بعضها فوق بعض. والطرائق جمع طريقة وكل ما فوقه مثله فهو طريقة.

وحقيقة السماوات السبع لاتزال مجهولة لدينا إلى الآن وما قاله المفسرون في ذلك فلا يخرج عن كونه اجتهادات لهم وليست حقائق ثابتة، ومن أقوالهم أن السماوات السبع مراد بها ما كان مفهوماً عند العرب زمن تنزيل القرآن وهي الكواكب الخمسة الآتية المعروفة لهم وهي: عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى، زحل، يضاف إليها

الشمس والقمر. فالقرآن أُنزل بلغة العرب فخوطبوا عن أمر السماء بما وصلت إليه عقولهم. هذا مع العلم أنه اكتشف أخيراً كواكب أخرى بعد اختراع المناظير القوية وهي: أورانوس، ونبتون، وبلوتو.

وهناك تفسير آخر وهو أن «السبع» ليس المراد منها العدد الحصري، فقد تكرر في القرآن السبعة والسبعون والسبعمائة وهذه في لغة العرب المراد منها التضعيف والتكثير على ما جاء في لسان العرب، أي أن هناك كثيراً من الأجرام السماوية، والقرآن أنزل بلغة العرب يفهمه المعاصرون له، وتفهمه الأمم التي تأتي بعدهم. وقد طالعنا العلم أن في السماوات ملايين المجرات وكل مجرة تحتوي على ملايين النجوم بالإضافة إلى ما فيها من كواكب. ويمكن أن يكون المقصود بالعدد السبع هو نفس العدد ولكن لا ندري ما المقصود به والله أعلم.

﴿وما كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي وما كان الله غافلاً عما خلقه في الكون فهو يحفظه من الزوال ومن الفوضى ومن اصطدام النجوم والكواكب بعضها ببعض أو بأرضنا فتدمرنا.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرْضِ﴾ وأنزل الله من السماء ماء عذباً بمقادير معينة بما فيه حاجة العباد. والمراد بالسماء هنا السحب وكل ما علا الإنسان فهو سماء، والسحب التي ينزل منها المطر تنشأ من عمليات التبخر من البحار والأنهر. والمطر هو أساس المياه العذبة على سطح الأرض والعنصر الأساسي للحياة عليها، ومن الأمطار تتغذى الأنهر بواسطة الينابيع وتهب الحياة للمناطق القاحلة ثم هي أخيراً تصب في البحار غير أن بعض مياه الأمطار في أثناء هذه الدورة الطبيعية يتسرب إلى باطن القشرة الأرضية مكوناً المياه الجوفية التي تنتقل من مكان إلى آخر، وهذه المياه الجوفية ينتفع منها الإنسان بواسطة الآبار وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرْضِ﴾. ثم يعقب الله على ذلك ﴿وإنَّا عَلَى ذَهَابٍ به لَقَادِرُونَ﴾ أي وإن الله لقادر على إزالة هذا الماء العذب، وعدم تمكين الناس من الانتفاع به فيغور في الأرض، فاشكروا أيها الناسُ نِعَمَ الله عليكم.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِن نَخِيلٍ وأعْنَابٍ﴾ أي جعل الله لكم بهذا الماء بساتين من نخيل وأعناب وخصهما الله بالذكر لأن هذين النوعين كانا أعظم ثمار الحجاز، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف، فذكّر القرآن العرب بما يعرفون من نعم الله عليهم، بالإضافة إلى فوائدها الجمة ﴿لكم فيها فَوَاكِهُ كَثِيرةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلونَ﴾ لكم في هذه البساتين فواكه متنوعة كثيرة من جميع الثمار عدا النخيل والأعناب وتأكلون من ثمارها.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء﴾ أي وأنشأنا لكم أيها الناس شجرة الزيتون التي تنبت في منطقة طورسيناء من أرض فلسطين القريبة من بلاد العرب. والطور هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، ومعنى سيناء: الحسن أو المبارك وينسب الزيتون إليه لكثرته هناك. ﴿تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وَصِبْغٍ للآكلينَ﴾ أي من ثمار الزيتون تستخرجون زيتاً تنتفعون به وهو إدام للآكلين، وكل إدام يُؤتدم به فهو صبغ، وصبغَ اللقمة دهنَها وغمسَها، وخص الله شجرة الزيتون بالذكر لعظيم منافعها، فالزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ففيه نسبة كبيرة من البروتيين، كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية والحديدية والفوسفورية، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوي على ڤيتامين (أ) و (ب) وزيت الزيتون له فوائد عديدة فهو يفيد الجهاز الهضمي والكبد خاصة. وهو مفضل على كافة أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية إذ لا يسبب أمراضاً للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهون الأخرى.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ في الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، فهذه المخلوقات تدل على قدرة الله وفضله على الناس ﴿نُسْقِيكم مِمَّا في بُطونِهَا﴾ نسقيكم أيها الناس لبناً مستخرجاً مما في بطونها. واللبن (أي الحليب) ومشتقاته يعتبر من أهم عناصر التغذية للبشر ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الإبل والسفن تركبون وتحملون عليها أمتعتكم. وقد كانت الإبل في عصر نزول القرآن من الوسائل للسفر في البر قبل اختراع الطائرات والسيارات، فذكّر الله العرب الذي أنزل عليهم القرآن بهذه النعم التي هي أمام أنظارهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ
عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

شرح المفردات

تتقون: تخافون عقوبة الله.

الملأ: الزعماء والأشراف.

جِنّة: جنون.

فتربّصوا: انتظروا.

حتى حين: إلى زمن يفيق من جنونه.

فأوحينا إليه: أمرناه.

بأعيننا: تحت رعايتنا وحفظنا.

فإذا جاء أمرنا: أي قضاؤنا بنزول العذاب بهم.

وفار التنور: نبع الماء من تنور الخبز.

فاسلك: أدخل.

سبق عليه القول: سبق قضاء الله بهلاكه.

استويت: عَلَوْتَ واستقريت.

لمبتلين: لمختبرين.

قصة نوح عليه السلام

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن رسول الله نوح وما لاقى من صدود قومه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ ونوح عليه السلام هو أول رسول من عند الله ـ بعد نبوة آدم ـ أرسله الله لهداية قومه الذين فشت فيهم عبادة الأصنام ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعبدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذا هو أساس دعوة رسل الله إلى أقوامهم في جميع العصور، وهي عبادة الله وحده ونبذ كل مظاهر العبودية لغير الله. فالعبودية لله وحده تحرر الإنسان من كل الأغلال والأباطيل والخرافات التي كبلت عقل الإنسان على مر العصور وحادت به عن حقيقة الوجود وهي أن لا معبود بحقٍّ إلاّ الله فهو خالق الكون، وهو المنعم على الناس بنعمه التي لا تحصى، وهو المحيي والمميت، وهو وحده الذي يكشف الضر ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخشون عقابه وعذابه بعبادتكم غيره.

﴿فَقَالَ الملأُ الَّذين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ الملأ: هم الأشراف وكبراء القوم الذين اعترضوا على نبوة نوح، وقالوا لعامة الناس: إن نوحاً إنسان مثلكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم﴾ يريد أن يتميّز عليكم ويسودكم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائكَةً﴾ لو شاء الله لجعل رسوله إلى الناس مَلَكاً من الملائكة. هؤلاء الأشراف رأوا في دعوة نوح خطراً على مكانتهم الاجتماعية، لأن رسالة نوح من ربه تحمل في طيّاتها المساواة بين الناس وعدم استعلاء بعضهم على بعض ولذا كان همّ الأشراف صرف الناس عن ما يدعو إليه نوح والحؤول دون وصول صوته إلى قلوب الناس.

وتابع الأشراف قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا في آبَائِنَا الأَوَّلين﴾ أي ما سمعنا بمثل دعوة نوح في آبائنا وأجدادنا الذين كانوا قبلنا. هذا القول ينبيء عن تقيدهم بسيرة آبائهم وأجدادهم، وتقليدهم تقليداً أعمى. فالتقليد الأعمى هو آفة المجتمعات البشرية التي كثيراً ما جعلها ضمن دائرة الخرافات والتخلف والنظم البالية، ورفض نداء العقل، وكل ما من شأنه أن يدفعها إلى الرقي والانصياع إلى الحق.

كما قال الأشراف في شأن نوح: ﴿إِن هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي ما نوح إلاّ رجل مجنون فيما يزعمه أن الله أرسله إليكم ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فانتظروا حتى ينكشف جنونه، أو يحين وقت موته.

ولما رأى نوح تمادي قومه في ضلالهم دعا ربه: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي رب انصرني عليهم بإهلاكهم بسبب تكذيبهم إياي بأني رسول من عندك. فاستجاب الله دعاءه وأمره بصنع السفينة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي أمرناه بأن يصنع السفينة برعايتنا، وبحفظنا، وتعليمنا إياه صنعها، وقد روي أن الله أرسل إليه جبريل فعلمه صنعها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فإذا جاء قضاؤنا بإنزال العذاب بهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي نبع الماء من التنور، والتنور هو الذي يخبز فيه الخبز، وقيل التنور: هو وجه الأرض، وقد جعل الله فوران الماء علامة على بدء الطوفان. فإذا رأيت هذه العلامات يا نوح ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي فأدخل في السفينة من كل أصناف الحيوان والطير زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي واحمل في السفينة أهلك الذين آمنوا معك إلاّ من سبق قضاء الله عليهم بالإغراق لبقائهم على الكفر، فلا تحمله معك في السفينة وهما: زوجته وابنه المسمى كنعان ﴿ولا تُخَاطِبْنِي في الَّذين ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُون﴾ ولا تسألني بطلب النجاة من الغرق للذين كفروا فإنهم لا يستحقون أن تشفع لهم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ فإذا استقريت أنت ومن معك من المؤمنين على ظهر السفينة ﴿فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظالمين﴾ أي فاشكر الله يا نوح ومن آمن معك على تخليصكم من هؤلاء الكافرين الظالمين.

ثم أمر الله نوحاً أن يدعو بهذا الدعاء حين خروجه من السفينة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أنزلني مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ﴾ مُنْزَلاً: بضم الميم وفتح الزاي بمعنى الإنزال، أي أنزلني إنزالاً مباركاً. وقُرئت مَنْزِلاً بفتح الميم وكسر الزاي بمعنى المكان، أي أنزلني مكاناً مباركاً. والبركة معناها الخير ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ وأنت يا رب خير من أنزل عباده المنازل الطيبة لأنك تحفظ من أنزلته وتغمره بفضلك وترد عنه كل مكروه. هذا الدعاء يستحسن الدعاء به لكل من نزل مكاناً يريد الإقامة فيه، وفضل الله ليس له حدود.

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ وإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي إن في قصة نوح عبراً ومواعظ، وإنّا نختبر العباد بهذه الآيات لننظر من يعتبر ويتذكر عاقبة الكفر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ
مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا
مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ
عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا
بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

شرح المفردات

قرناً: أمة.

الملأ: أشراف القوم ورؤساؤهم.

أترفناهم: نعّمناهم بسعة الرزق وغيره.

هيهات: اسم فعل بمعنى بَعُدَ.

إنْ هِيَ: إن: حرف نفي بمعنى ما، أي ما هي.

بمبعوثين: البعث هو إخراج الناس أحياء من قبورهم يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

الصيحة: هي الصوت الشديد المزعج التي نشأ عنها الهلاك والعذاب.

فجعلناهم غثاء: فجعلناهم هلكى كالغثاء وهو ما يحمله السيل من العيدان وورق الشجر والأشياء البالية.

فَبُعْداً: فهلاكاً وطرداً من رحمة الله.

تترى: تباعاً.

إهلاك الأمم بسبب كفرها

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ أي ثم أحدثنا من بعد مهلك قوم نوح قوماً آخرين هم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِم رَسُولاً مِنْهُم﴾ فأرسلنا في قوم ثمود رسولاً من عشيرتهم وهو صالح ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ وقلنا لهم على لسانه: اعبدوا الله وحده فليس لكم إلّه يستحق العبادة غيره ﴿أَفلا تَتَّقُونَ﴾ افلا تخافون عذاب الله وانتقامه إن كفرتم بربكم وأعرضتم عن عبادته.

﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي وقال الأشراف من قوم صالح الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا الأصنام وكذبوا بالبعث يوم القيامة ﴿وَأَتْرَفْنَاهُم في الحياةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا عليهم في الأرزاق والنعم فبطروا ﴿مَا هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكلونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي قال الأشراف لعامة الناس: ما صالح الذي يدّعي أنه رسول من عند الله إلاّ بشر مماثل لكم في البشرية، يأكل من جنس ما تأكلون، ويشرب من جنس ما تشربون، ومثل هذا لا يكون رسولاً لعدم تميزه عليكم، ثم حذروهم بقولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُم إِنَّكُم إذاً لخَاسِرونَ﴾ أي وإن أطعتم رجلاً يماثلكم في البشرية أصابكم الغبن والخسران بسبب ترككم دين آبائكم.

ثم طعن الأشراف في وجود البعث ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُم إِذَا مِتُّمْ وكنتُم تُرَاباً وَعِظاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ استفهام على وجه الاستهزاء: أي أيقدم لكم الوعد بأن تخرجوا من قبوركم أحياء يوم القيامة بعد تحلل أجسادكم إلى تراب وأصبحتم عظاماً نخرة ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَات لِمَا تُوعَدُونَ﴾ إن ما وعدكم به بعيد جداً ولن يكون أبداً.

ثم أكدوا إنكارهم للبعث ﴿إِنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾أي ليس هناك إلا حياة واحدة هي هذه الحياة الدنيا يموت البعض فيها ويولد البعض، ولن نبعث أحياء بعد الموت أبداً.

هذا ما قاله الأشراف من قوم رسول الله صالح، وهذا ما يقوله كثير من الناس في عصرنا الحاضر الذين يعتنقون المذاهب المادية التي تقول بأنه ليس هناك بعث بعد

الموت ولا جزاء على الأعمال، ولا حياة إلاّ الحياة الدنيا، هذا المفهوم أدى إلى الانغماس في الشهوات الضارة، وفتح للأطماع البشرية أبواباً للشرور لتلبية رغباتها بأي وسيلة كانت مما أدى إلى الظلم والعدوان على الغير والفساد في الأرض، فالاعتقاد بالبعث هو الدافع الأكبر الذي يلجم النفوس عن الشر.

وتابع الأشراف قولهم عن صالح: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي ما هو إلا رجل اختلق على الله الكذب وادعى أنه رسول من عنده ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمصدقين له فيما يدعيه ويزعم بأن هناك حياة أخرى بعد الموت.

ولما أصر القوم على الكفر دعا صالح ربه: ﴿قَالَ: رَبِّ انْصُرنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي رب انصرني على قومي وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إياي، فأجابه ربه إلى ما سأل: ﴿قَالَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي عما قليل من الزمن ليصبحن نادمين على إصرارهم على الكفر وذلك حينما يرون ظهور علامات العذاب والهلاك لهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي نزل بهم عذاب الله وسخطه فصاح بهم جبريل صيحة شديدة أهلكهم الله بها وكان هلاكهم عدلاً من الله لا ظلماً ﴿فَجَعَلْنَاهُم غُثَاءً﴾ أي أصبحوا هلكى كغثاء السيل، والغثاء ما يحمله السيل مما بَلِيَ واسوَدّ من ورق الشجر والعيدان. تشبيه بليغ لما آل إليه أمرهم من حقارة وتفاهة كغثاء السيل الذي لا نفع منه ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فهلاكاً لهم وطرداً لهم من رحمة الله.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِم قُرُوناً آخَرِينَ﴾ أي ثم أوجدنا بعد هلاك قوم ثمود أقواماً آخرين. وفي الكلام حذف، أي فكذبوا أنبياءهم فأهلكهم الله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي لا يقضى على أمة بسبب كفرها قبل الوقت الذي عُيِّن لهلاكها، ولا يتأخر هلاكها عن الوقت المقدّرلها، فوقت الهلاك محدد لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يأتي الاستئصال لهم من الله إلاّ بعد علمه تعالى أنهم لا يزدادون إلاّ كُفراً وأنهم لا يلدون مؤمناً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ثم أرسلنا رسلنا من البشر إلى الناس متتابعين يتبع

بعضهم بعضاً ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ كلما جاء رسول من الله إلى أمة بشريعة من ربه كذبوه ورفضوا دعوته ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً﴾ أي فأتبع الله بعضهم بعضاً بالهلاك. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وجعل الله هلاكهم أحاديث يرددها الناس على سبيل التعجب والعبرة. ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فبعداً عن رحمة الله وهلاكاً لقوم لا يصدقون بما جاء به رسل الله. فهذه الآية وردت على سبيل الذم والتوبيخ والوعيد لكل كافر لا يُذعن لشريعة الله.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾
فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

شرح المفردات

بآياتنا: بعلامات نبوته وهي المعجزات التسع كالعصا واليد والضفادع والدم وغيرها.
سلطان مبين: حجة واضحة.
عالين: متكبرين.
إلى ربوة: هي المكان المرتفع.
ذاتِ قرار: ذات استقرار لما فيها من الزرع والثمار.
معين: ماء جار.
أمتكم: ملتكم ودينكم.
فتقطّعوا أمرهم: افترقوا في أمر دينهم.
زُبُراً: فرقاً وطوائف.

موسى وهارون وعيسى عليهم السلام

وبعد الكلام عن بعض رسل الله وما حل بقومهم من هلاك جزاء تكذيبهم لهم يأتي الكلام عن موسى وهارون:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هارون بآياتنا﴾ أي ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بالمعجزات كالعصا واليد والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ونقص من الثمرات التي أصابت قوم فرعون ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وهذه المعجزات حجة واضحة تبين أنهما رسولان من عندنا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِهِ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ فاستكبروا عن الإيمان بالله وعبادته وحده وكانوا قوماً متكبرين ومتطاولين على الناس بالبغي والظلم ﴿فقالوا: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي قالوا في تعجب وإنكار: أنصدق وننقاد لرجلين مثلنا في البشرية ونتبعهما ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ وقومهما بنو إسرائيل خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا وينقادون لأمرنا ﴿فَكَذَّبوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ فكذبوا موسى وهارون في دعوتهما لهم إلى عبادة الله وحده فكان مصيرهم الهلاك ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَاب لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾ ولقد أنزلنا على موسى التوراة ليهتدي بها بنو إسرائيل.

وبعد الكلام عن موسى وهارون يأتي الكلام عن رسول الله عيسى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي وجعلنا عيسى وأمه مريم معجزة دالة على قدرتنا إذ حملت به من غير أن يمسها بشر وأنطقناه في المهد وأجرينا على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ﴿وآويناهُما إِلى رَبْوَةٍ﴾ واسكناهما في مكان مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي يستقر من يأوي إليها لما فيها من الأمن والثمار والزروع ﴿وَمَعِينٍ﴾ ومأواهما كان قرب ماءٍ جارٍ ظاهر للعيون. قيل إن هذا المكان هو بيت المقدس وقيل بغوطة دمشق.

وسبب الإيواء أن مريم فرت بابنها عيسى إلى هذه الربوة وبقيت بها ردحاً من الزمن وقد ذهب بهما ابن عمها يوسف النجار ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم.

وبعد الكلام عن موسى وعيسى يوجه الله الخطاب إلى رسله: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً﴾ والأكل من الطيبات يشمل تحري الحلال منها وما يستلذ

ويستطاب من المآكل والمشارب التي أحلها الله. كما أمر الله الرسل بأن يعملوا بصالح الأعمال. وتقديم قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ﴾ على قوله ﴿واعْمَلُوا صَالِحاً﴾ فيه دلالة على أن العمل الصالح لا بد أن يكون مسبوقاً بأكل الحلال. وهذا الأمر إلى رسل الله يشمل أتباعهم وأممهم وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي أن رسول الله محمداً ﷺ قال: ياأيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلاّ طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يأيها الرُّسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾.

ثم يعقب الله على ذلك قوله: ﴿إني بِمَا تَعْمَلُون عَلِيمٌ﴾ أي إني بأعمالكم أيها الناس عليم لا يخفى عليَّ شيء منها ومجازيكم عليها.

ويخاطب الله رسله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وإن دينكم أيها الرُّسل دين واحد وملة واحدة وهي الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله وعبادته وحده ونبذ كل المعبودات من دونه واتقاء معصيته. ﴿وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُونِ﴾ وأنا ربكم أيها الناس لا شريك لي في الربوبية فخافوا عذابي ولا تعصوني.

أما الشرائع التي أُنزلت على رسل الله فتختلف بأحوال الأمم وتطورها ودرجة استعدادها العقلي وقد بيَّن الله ذلك بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكم شِرْعَةً وَمِنهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] إلى أن جاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ بشريعة كاملة للبشرية جمعاء وهي الشريعة التي لا يقبل الله غيرها إلى يوم القيامة.

ثم يبيِّن القرآن أن الأمم التي أرسل الله إليها رسله اختلفوا في أمر دينهم: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بينهم زُبُراً﴾ فتقطعوا: أي افترقوا. ولفظ تقطعوا فيه المبالغة لشدة اختلافهم حول دينهم حيث جعلوه قطعاً بدل أن يكون شريعة واحدة كما أنزلها الله على رسله. وأمرُهم: أي أمر دينهم. وزبراً: واحدها زبور، وهي الفرقة والطائفة؛ فأتْبَاع الأديان فَرّقوا أمْرَ دينهم قطعاً وصاروا فرقاً وطوائف ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيهم فَرِحُونَ﴾ كل فريق مغتبط بما اتخذه ديناً لنفسه معجباً به يرى الحق في جانبه والباطل في سواه. فما أروعَ هذا الوصفَ الذي يجسد حقيقة الوضع الذي عليه طوائف الأديان الحاضرة.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ
لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ
ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا
سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ
إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

شرح المفردات

فَذَرْهُم في غمرتهم: فاتركهم بما يغمرهم من جهل وغفلة.

حتى حينٍ: إلى الزمن المقدر لهلاكهم.

مُشفقون: خائفون حذرون.

يُؤْتُون ما آتوا: يُعْطُونَ ما أَعْطَوْا من الصدقات.

يجأرون: يصرخون مستغيثين.

على أعقابكم تنكصون: تعرضون مدبرين عن سماعها.

سامرا: متحدثين ليلاً.

تهجرون: يقولون في القرآن والنبيِّ الباطلَ والهزلَ من الكلام.

من صفات المؤمنين والكافرين

﴿فَذَرْهُم في غَمْرَتِهِم حَتَّى حِينٍ﴾ أي فاترك يا محمد هؤلاء الكفار في جهلهم وضلالهم إلى حين أن يقضي الله فيهم بالهلاك والعذاب، والغمرة في اللغة ما يغمرك ويعلوك، والغمر الماء الكثير لأنه يغطي الأرض، وقد شبهوا بالغمرة وصفاً لحالهم حين ستر الجهل والضلال عقولهم بحال من غمره الماء وغطاه.

ولما كان الكفار في نعم وافرة جاز أن يظنوا أن تلك النعم هي كالثواب المعجل لهم فبيَّن الله سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وبنين. نُسَارِعُ لهم في الخيراتِ بَلْ لا يَشْعرونَ﴾ أي أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم نسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي كلا ليس الأمر كما يزعمون، بل لا يشعرون بأن هذا الإكرام ليس إلاّ استدراجاً لهم في المعاصي واستجراراً لهم في زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة في الإحسان إليهم.

وفي مقابل هؤلاء يذكر الله بعض صفات المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهم مُشْفِقُون﴾ والإشفاق يتضمن معنى الخشية مع زيادة رقة وضعف. وقد جمع بين الخشية والإشفاق للتأكيد، ومن العلماء من حمل معنى الإشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة، ويكون المعنى: والذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته.

﴿والّذين هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ﴾ وآيات الله تعالى هي المخلوقات التي يستدل به المؤمنون على وجود الله من سماءٍ وأرض وما عليها من كائنات، وقد يراد بآيات الله: آياتُ القرآن المنزلةُ على محمد ﷺ فالمؤمنون يُصدِّقون بأنها من عند الله.

﴿والَّذِين هُمْ بربِّهم لا يُشركون﴾ ومن صفاتهم أنهم يعبدون ربهم ويخلصون له العبادة ولا يشركون بعبادته أحداً.

﴿والّذين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وقلُوبهم وَجِلَةٌ﴾ ومن صفاتهم أنهم يُعْطُون ما أَعْطَوْه من الصدقات والزكاة وقلوبهم خائفة من أن تحاسب على ما قصرت من الحقوق لأنهم يعتقدون أنهم راجعون إلى الله ومحاسبون على أعمالهم.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخيراتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أولئك المتصفون بتلك الصفات يبادرون إلى فعل الطاعات وأعمال الخير ويتعجلون ثوابها وهم سابقون الناس لأجلها.

﴿ولا نُكَلِّفُ نَفساً إلاّ وُسْعَهَا﴾ أي أن سنة الله قضت ألاّ يكلف الناس بالطاعات إلا بما في وسعهم، وقدر طاقتهم. فمثلاً: من لم يستطع أن يؤديَ الصلاة قائماً يصلي قاعداً، ومن لم يستطع الصوم لمرض أو لسفر يفطر، ويقضي أو يخرج الفدية وهكذا في كل التكاليف الشرعية. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بالحقِّ﴾ وعند الله كتاب دونت فيه أعمال الناس ليجازوا عليها ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص في الثواب أو زيادة في العقاب ﴿بَلْ قُلُوبُهم في غَمْرَةٍ﴾ بل قلوب الكفار يغمرها الضلال والجهل ويغطيها ﴿وَلَهُمْ أعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ ولهم أعمال سيئة غير الكفر بالله والشرك به ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وهم لا بد أن يعملوها لأنها ثابتة في علم الله، ويدخلوا النار بسببها يوم القيامة.

﴿حَتَّى إذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالعَذَابِ﴾ ومترفيهم أي المتنعمين منهم وهم رؤساؤهم وأغنياؤهم، والعذاب الذي أصابهم هو يوم معركة بدر حيث قتل الكثير منهم وأسر بعضهم وجرح من جرح منهم، وقد يراد بالعذاب هنا عذاب يوم القيامة ﴿إذا هُمْ يَجْأَرونَ﴾ أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه.

ثم يقال لهم على وجه التبكيت ﴿لا تجأَرُوا اليَوْمَ إِنَّكُم مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تصرخوا اليوم ولا تستغيثوا فلن تفلتوا من عذاب الله ولن تأتيكم نصرة من ربكم تحول بينكم وبين العذاب. وخصص الله المترفين بالعذاب مع أن العذاب يعم الكفار جميعاً المترفين وغير المترفين، وذلك لتصوير الواقع الأليم الذي آلوا إليه فانتقلوا من النعيم التام إلى الشقاء الخالص.

ثم يبين الله عدم النصرة لهم: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتي تُتْلَى عَلَيْكُم﴾ أي قد كانت آيات القرآن تُقرأ عليكم ﴿فَكُنْتُم على أَعْقَابِكُم تَنْكِصُونَ﴾ والنكوص: الرجوع إلى خلف، والعقب مؤخر الرِّجْلِ وهو كناية عن إعراضهم عن سماع آيات القرآن فضلاً عن التصديق بها ﴿مُسْتَكْبِرينَ بِهِ﴾ أي مستكبرين ببيت الله الحرام ومفتخرين بولايته وكانوا يقولون لا

يغلبنا أحد فيه أو مستكبرين عن التصديق بأن القرآن من عند الله ﴿سَامِراً تَهْجُرونَ﴾ سامراً: مشتق من السَّمَر وهو الحديث ليلاً. ومعنى تهجرون بفتح التاء: الهذيان، واللغو من الكلام. وقرئت تُهجرون بضم التاء وهو الفحش من الكلام، فقد كان كفار مكة يجتمعون حول بيت الله الحرام ليلاً وكان عامة حديثهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وأنه أساطير الأولين.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ
رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن
ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

شرح المفردات

أفلم يدَّبَّروا القول: أفلم يتأملوا بمعاني القرآن الدالة على صدق النبي ﷺ.

جنة: جنون.

ذكرهم: هو القرآن الذي به فخرهم وشرفهم.

خَرْجاً: أجراً على اداء رسالة الله.

الصراط: الطريق الذي لا ميل فيه ولا اعوجاج.

لناكبون: لعادلون مبتعدون.

للجوا: لتمادَوْا.

يعمهون: يتحيرون ويترددون.

فما استكانوا: فما خضعوا ولا انقادوا.

مبلسون: يائسون من كل خير، متحيرون.

مكابرة الكافرين وإعراضهم عن الحق

ثم يبين الله سبب إعراض الكافرين عن التصديق بأن القرآن كتاب الله وأن محمداً رسول الله الذي يعود إلى الجهل والعناد والمكابرة عن الإقرار بالحق:

أولاً: عدم تأملهم معاني القرآن ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ والقول المراد به هنا القرآن، وسمي القرآن قولاً لأنهم خوطبوا به. والمعنى: أفلم يتأملوا في القرآن ويتبصروا بما فيه؛ فيعلموا أنه كلام الله حقاً. هذا هو السبب لعدم تصديقهم بأن القرآن كتاب الله وهو أنهم لم يتدبروا القرآن ولم يتأملوا معانيه. وهذا هو السبب الجوهري في عصرنا الحاضر لعدم اعتناق أتباع الأديان للإسلام. فلو تأمل أي إنسان غريب عن الإسلام آيات القرآن وتفكر بمعانيها بعقل منفتح وبتجرد تام وقارنها بجميع الكتب الدينية الأخرى لآمن بأن القرآن هو كلام الله الحق، واعتنق الإسلام عن اقتناع ويقين.

فالقرآن هو الكتاب المُعجِز للبشر بأسلوبه وفصاحته وبما اشتمل عليه من الهداية والتشريعات العادلة وبما بيّن فيه من حقائق الألوهية والأمور الغيبية التي اختلف الناس حولها، وبما ذكر من أخبار رسل الله مع قومهم التي كانت خافية على الناس، كل هذه الأمور وغيرها تشهد بأن القرآن وحي إلهي.

ثانياً: إرسال الله للرسل ليس غريباً عن أسماعهم ﴿أَمْ جَاءَهُم مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أم: بمعنى بل التي تفيد الانتقال من معنى إلى آخر، أي بل جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين فلذلك أنكروه، لا ليس كذلك، فقد وصلت إلى أسماعهم الكثير من أخبار رسل الله الذين أنزل عليهم الكتب الإلهية، فلماذا يستبعدون إنزال القرآن على محمد ويظلون على كفرهم وضلالهم.

ثالثاً: معرفتهم حق المعرفة بسيرة محمد، ومع هذه المعرفة جحدوا نبوته: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي بل أنهم لم يعرفوا سيرة رسول الله محمد إليهم، فلذلك جحدوا نبوته، وهذا خلاف الواقع فقد كانوا عالمين بسيرته وما يتحلى به

من اخلاق رفيعة وأمانة وصدق حتى لقبوه بالأمين، ومن كان يتحلى بهذه الصفات لا يمكن أن يدّعي النبوة كذباً.

وإني أتوجه إلى كل مفكر حرّ من أتباع الأديان الأخرى أن يقوم بدراسة سيرة محمد بتجرّد وما تشتمل عليه من مثل عليا وتضحيات جمة وقيادة رشيدة، ووصايا لقومه دُوِّنت في عشرات المجلدات وهي التي تسمى كتب الأحاديث الشريفة فسيجد فيها كل طالب للحقيقة البرهان الساطع بأن محمداً رسول الله حقاً إلى البشرية جمعاء.

رابعاً: انتفاء الجنون عن النبي ﷺ: ﴿أم يَقُولُونَ به جِنَّةٌ﴾ أي بل يقولون إن محمداً مجنون، وهذا من أغرب الافتراءات منهم، فقد كانوا يعرفون أن محمداً كان أرجح الناس عقلاً، وأحسنهم رأياً، وأوفرهم رزانة. ثم يقول تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالحَقِّ﴾ بل جاءهم محمد بالدين الحق ﴿وَأَكْثَرُهُم لِلحقِّ كَارِهُونَ﴾ وأكثرهم يكرهون الإسلام وذلك لما جُبلوا عليه من التعصب والانحراف عن الصواب. وظاهر النص القرآني أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ولكنهم لم يظهروا الإيمان خوفاً من الكارهين له وهم الأكثرية.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمٰوٰتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ والحق ضد الباطل. قيل المراد به الله سبحانه وقيل المراد به الإسلام، فلو اتبع الحق ما يهوى الناس من اتخاذِ آلهة مع الله وأتباعٍ للشهوات من إباحة الظلم وإهمال القيم الخلقية لوقع الفساد في الأرض بسبب تنافر الآلهة وسيطرة البعض على الآخر واختلاف تدبيرهم، ولفسد المجتمع بشيوع المنكرات، وإذا فسدت السماوات والأرض فسد من فيها من الخلق ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ والمراد بالذِّكْرِ هنا هو القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ﴾ فهم عن هذا القرآن معرضون وكان اللائق بهم الأخذ به وتعظيمه لأن فيه عزهم وفخرهم.

﴿أم تَسْأَلُهُمْ خَرجاً﴾ استفهام توبيخ، أي أتسألهم يا محمد مالاً مقابل هدايتك لهم، وهذا لم يحصل قط، ولم تطلب مالاً منهم على ذلك ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ فرزق

ربك الذي يرزقك في الدنيا وثوابه الذي يعطيك إياه في الآخرة خير لك من المال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهو سبحانه خير من يرزق ولا يساويه أحد في التفضل على عباده.

وهنا إشارة إلى أن العلماء بالله الراسخين في العلم يترفعون عن أخذ الأجرة فيما يدعون به الخلق إلى الله إذا كانوا في كفاف من العيش لا تحوجهم إلى أخذ الراتب أجرة على وعظهم، فإنه ما من نبي دعا إلى الله إلاّ قال: إن أجري إلا على الله.

ثم يوجه الله خطابه إلى رسوله محمد: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وإنك لتدعوهم يا محمد إلى طريق مستقيم وهو دين الإسلام التي تشهد العقول السليمة باستقامته الذي يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ وإن الذين لا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت هم عن الطريق المستقيم لعادلون عنه ومائلون. فإنكار الآخرة هو الذي يفتح للإنسان باب الشهوات على مصراعيه ويسوغ له فعل منكر قبيح لأنه يظن أنْ لا حسابَ ولا جزاءَ على ما عمله في دنياه، أما التصديق بوجود الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال فهو الذي يردع الإنسان عن الشرور والمنكرات.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُم وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِنْ ضُرٍّ﴾ ولو رحمهم الله وأزال عنهم ما نزل بهم من ضرٍّ في أبدانهم، ونقص في أموالهم، وقحط في مزروعاتهم ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ﴾ لتمادوا في ضلالهم، واستمروا في عنادهم يترددون متحيِّرين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ﴾ ولقد أصابهم الله بالعذاب، والعذاب هنا هو الجوع الذي أصابهم في سنين القحط، أو الذي نالهم يوم معركة بدر من القتل والأسر ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ فما خضعوا لربهم ولا تذللوا له ولم يحصل منهم رجوع إلى الله والتجاء إليه ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من الله عذاب شديد في جهنم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحيرون يائسون من كل خير لا يدرون ما يصنعون.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ
مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

شرح المفردات

أنشأ: الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته.

ذرأكم: خلقكم وبثكم في الأرض بالتناسل فيها.

تحشرون: تجمعون يوم القيامة للحساب على أعمالكم والمجازاة عليها.

أساطير الأولين: ما سطره الأولون من الأكاذيب.

تذكّرون: تتّعِظُون.

ملكوت: المُلك، وزيادة التاء للمبالغة.

يُجِيرُ: يغيث من يستجير به.

ولا يُجار عليه: ولا يُغاث من يريد الله تعذيبه بمنع العذاب عنه.

فأنّى تُسحرون: فكيف تخدعون وتُصرفون عن طاعة الله وتوحيده.

إثبات البعث ووحدانية الله

ثم يبين الله فضله على عباده والنِّعَم التي خصهم بها بقوله:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُم السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ وهو الله الذي أعطاكم السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والقلوب التي تفقهون بها. وإنما خص الله السمع والأبصار والأفئدة لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله شكراً قليلاً غير معتدٍّ به في مقابلِ تلك النعم الجليلة. أو بمعنى أنهم لا يشكرونه ألبتة، كما يقال لجاحد النعمة: ما أقلَّ شكرَه: أي لا يشكر البتة.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم فِي الأَرْضِ﴾ وهو الله سبحانه خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وإلى الله تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

﴿وهُوَ الَّذي يُحيي ويُميتُ﴾ وهو الله سبحانه يحيي خلقه بعد أن كانوا أمواتاً بنفخ الروح فيهم ثم يميتهم بعد أن أحياهم ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ وهو سبحانه سخر الليل والنهار وجعلهما متعاقبين ويختلفان في الطول والقصر حسب الفصول الأربعة ﴿أفلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون في هذه الظواهر الدالة على قدرة الله العظيمة.

ثم يبين الله إنكار المشركين للبعث: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُون﴾ أي بل قلد المشركون الأمم السابقة في إنكار البعث ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لمبعُوثون﴾ أي أنبعث أحياءً بعد أن نموتَ وتتحلل أجسادنا ونصيرَ تراباً وعظاماً ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وآباؤنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ لقد وُعدنا بالحياة بعد الموت ووُعد آباؤنا من قبلنا بذلك ولم نر له حقيقة ﴿إن هَذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد إلاّ أكاذيب كتبها الأولون مما لا حقيقة لها.

ولما كان الكفار في بلاد العرب قبل مجيء الإسلام يتظاهرون بالإقرار بوجود الله ولكنهم كانوا يعبدون الأصنام ويقولون: ﴿مَا نَعْبدهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلفى﴾

[الزمر : ٣٩]. كما أنكروا إحياء الموتى يوم القيامة، لذا أمر الله رسوله أن يسأل هؤلاء الكفار عن القضايا الآتية ليكون الجواب المتضمن لها بطلان لمعتقداتهم:

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: من الذي ملك الأرض ومن فيها من الناس وسائر المخلوقات، إن كان لكم علم فأجيبوني ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي أنهم سيقرون بأن الأرض ومن فيها ملكاً لله دون غيره ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ افلا تتعظون بأن من خلق الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانية، فإن الإعادة كما هو معلوم أهون من البدء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نفي لعبادة الأصنام لأن الله هو المتفرد بخلق الأرض ومن عليها فلا موجب لعبادة غير الله.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوات السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وقل لهم يا محمد من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، والعرش كني به عن العز والسلطان والمملكة وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم ﴿سَيَقُولُون لِلَّهِ﴾ سيقرون بأن الله هو ربها وخالقها ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله وتتركون عبادة الأصنام وغيرها.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ﴾ وقل لهم يا محمد من بيده ملك كل شيء ومن له الحكم المطلق في كل شيء ﴿وهو يُجِيرُ ولا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ وهو يغيث من يشاء، ولا يستطيع أن يمنع أحد أحداً من عذاب الله ولا يقدر على نصره وإغاثته ﴿إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون بما دل عليه العقل والفطرة السليمة بأن ذلك كل لله وحده مُلكاً وتدبيراً ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ وقل لهم يا محمد فكيف تصرفون عن الحق وتخدعون، وكيف يخيل لكم الحق باطلاً والصحيح فاسداً كمن كان مسحوراً مختل العقل ﴿بَلْ أَتيناهُم بالحَقِّ﴾ بل بينا لهم على لسان رسولنا محمد بأن الله واحد لا شريك له ﴿وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ينسبونه إلى الله من الولد والشريك والتقرب إليه بعبادة الأصنام.

ثم ينفي الله عن نفسه الولد والشريك ببرهان ساطع وحجة واضحة:

﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي ما اتخذ الله من ولد كما يقول النصارى والقائلون من العرب بأن الملائكة بنات الله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ وما كان معه من إله يشاركه في الألوهية كما يقول عبدة الأصنام وغيرهم ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ إذ لو كان له شريك لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولغلب بعضهم بعضاً كما يُرى في حال ملوك الأرض، وحينئذ لا يستحق أن يكون الضعيف المغلوب إلهاً.

هذا الدليل القرآني كما دل على نفي الشريك لله فإنه يدل أيضاً على نفي الولد، لأن الولد قد ينازع أباه في ملكه كما هو مشاهد في الدنيا. ولو تعددت الآلهة لعم الفساد في الأرض والسماء كما جاء في القرآن أيضاً عند الكلام عن السماء والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وبما أن الكون منتظم في غاية الانتظام في سيْرِه وسننه فتكون النتيجة الحتمية التي يقرّ بها كل عقل سليم بأن الله واحد لا شريك له، ثم يأتي ختام هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس عن الشريك والولد ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم الله ما يغيب عن أنظار المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فتقدَّسَ الله وتنزه عما يقول المفترون بأن لله شريكاً وولداً.



قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾
وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ
أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ
صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ
فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح المفردات

همزات الشياطين: وساوسهم التي تفسد الإنسان وتدفعه إلى معصية الله.

بَرْزَخ: ما بين الموت والقيامة.

الصّور: البوق.

ثقُلت موازينه: أي موزوناته من الحسنات.

تلفح: تحرق.

كالحون: عابسون في غم وحزن.

خسارة الكافرين في الآخرة

وبعد تقرير وحدانية الله ونفي الشريك عنه أمر الله رسوله محمداً بأن يلتجىء إليه عند حلول العذاب بالكافرين:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي قل يا محمد: رب إن أنزلت بالكافرين ما أوعدتهم من العذاب في الدنيا وأنا موجود بينهم **﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي في القَوْمِ الظَّالمين﴾**

فأتوسل إليك ألاّ تجعلني قريناً لهم ولا تعذبني بعذابهم. وكُرّرت لفظة (رب) مرتين تعليماً للرسول والمؤمنين للمبالغة في التضرع عند ظهور أمارات العذاب. ومعلوم أن الرسول معصوم عن الظلم ولكنه أُمر بالدعاء إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي ونحن قادرون يا محمد على أن نريك العذاب الذي أوعدناهم به.

ثم أرشد الله رسوله محمداً إلى كيفية معاملة الكفار إذا لحقه الأذى منهم:

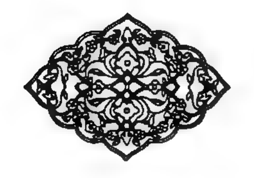
﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي اصفح عن إساءتهم وقابِلْها بما أمكن من الإحسان ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ الله اعلم بما يصفونك فيه من قبيح الصفات وما يصفون دعوتك من سوء وافتراء وسنجازيهم على ذلك.

ثم أمر الله رسوله محمداً بأن يستعيذ به من وساوس الشياطين ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي ألوذ بك يا رب وألتجىء من خطرات الشياطين ووساوسهم التي تدفع إلى المعاصي والعمل بما لا يرضيك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ وألتجىء إليك يا رب أن يكونوا معي في حال من الأحوال، فإنهم إذا حضروا لم يكن لهم عمل إلاّ الإغراء على معصيتك.

ثم أخبر الله عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ: رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ حتى إذا جاء الموتُ أحدَ الكفار وظهرت له أحوال الآخرة قال متحسراً نادماً: رب ردني حيًّا إلى الدنيا ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ لعلي اعمل عملاً صالحاً فيما تركته من مالي، وما قصَّرت فيه من عبادتك وحدك ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ كلا: كلمة ردع وزجر، أي لا يجيبه الله إلى طلبه، وتلك كلمة لا بد أن يقولها كل محتضر ظالم، ولا فائدة من رجوعه إلى الدنيا، لأنه لو أُجيب إلى ما يطلب لما وفى بما يقول ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ والموت حاجز بينهم وبين ما يتمنون إلى أن يبعثهم الله أحياء يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الصور هو بوق ينفخ فيه نفختان يوم القيامة فيُسمع صوت عظيم عند كل نفخة. النفخة الأولى في البوق تموت عندها الخلائق في السماوات والأرض، والنفخة الثانية تحيا عندها المخلوقات وتقوم من القبور وعندئذ يساقون إلى الحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي حينئذ يتعطل التفاخر بالأنساب، كما هو حالهم في الدنيا ولا ينفع الإنسان في هذا الموقف العصيب غير إيمانه وعمله الصالح ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه، فلكل منهم يومئذ من الهم ما يشغله عن سواه. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فمن ثقلت موزوناته من أعمال صالحة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ فأولئك الذين فازوا بالمرام فنجوا من عذاب النار وأُدخلوا الجنة دار النعيم ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي من الحسنات ورجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم في الكفر والمعاصي ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ومآلهم أن يمكثوا في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تَلْفَحُ وجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تحرق وجوههم، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف أعضاء الإنسان ﴿وَهُمْ فيها كَالِحُونَ﴾ وهم في جهنم عابسون مشوّهو المنظر.



أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ
ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى
وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ
ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾

شرح المفردات

غلبت علينا شقوتنا: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا.

اخسئوا: أي ابعُدُوا وانزجِرُوا.

العادّين: الذين يتمكنون من عد أيامها.

عبثاً: لا لفائدة ولا لحكمة.

حسابه: جزاؤه.

توبيخ الكافرين في الآخرة

وبعد أن بين الله مصير الكافرين في النار ذكر ما يُقال لهم على سبيل التوبيخ:

﴿أَلَم تَكُن آياتي تُتلى عَلَيكُم فَكُنتُم بِها تُكَذِّبونَ﴾ أي ألم تكن آيات القرآن تقرأ عليكم فكنتم تكذبون بها وتعرضون عنها ﴿قالوا: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلينا شِقْوَتُنا﴾ فيجيبون مقرين بخطئهم: ربنا طغت علينا لذاتنا وأهواؤنا فساقتنا إلى هذه الشقاوة، والشقاوة هي

سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أفعالهم ﴿وَكُنَّا قوماً ضَالِّينَ﴾ وكنا قوماً ضالين عن الهدى وطريق الحق ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ربنا أخرجنا من النار وأرجعنا إلى الدنيا فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي فإننا متعدُّون على حدودك ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيها ولا تُكَلِّمُونِ﴾ اخسئوا: لفظة تستعمل في الزجر والإبعاد أي انزجروا وأبعُدوا ولا تكلمونِ في رفع العذاب عنكم.

ثم بين الله السبب فيما نالهم من العذاب فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادي يَقُولُونَ: رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لنَا وارْحَمْنَا وأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي إن فريقاً من عباد الله ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر يقولون في الدنيا: ربنا صدقنا بوحدانيتك ورسلك فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك وأنت خير من يرحم عبادك ﴿فَاتَّخَذْتموهم سِخْرِيًّا حتى أَنْسَوْكُم ذِكْري وَكُنْتُم مِنهُم تَضْحَكُون﴾ أي فكنتم تسخرون من المؤمنين في الدنيا حتى أنساكم الاشتغالُ بالسخريةِ منهم، عن ذكري وعبادتي وطاعتي وكنتم منهم تضحكون استهزاءً من عبادتهم لي ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَروا إِنَّهُم هُمُ الفَائِزُونَ﴾ إني جازيتهم يوم القيامة بما صبروا على أذاكم بالدخول إلى الجنة إنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم.

وبعدما ذكرت الآياتُ ـ من قبلُ ـ طلبَ الكفار الرجوعَ إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم من طاعة الله وأخبرهم الله أن ذلك غير كائن، ذكر الله تعالى هنا أنهم يسألون وهم في النار سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ في الأرض عدد سنين﴾ والمراد ما لبثوه وهم أحياء على وجه الأرض، فيكون جوابهم: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقد نسوا المدة التي لبثوها في الدنيا لعظم ما هم عليه من الأهوال والعذاب حتى ظنوا أن المدة يومٌ واحدٌ أو بعض يوم. وتابع الكفار قولهم: ﴿فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾ فاسأل المتمكنين في معرفة العدد من الملائكة.

﴿قَالَ: إِن لَبِثْتُم إِلاَّ قَليلاً لَوْ أَنَّكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي قال لهم المَلك: ما عشتم في الدنيا إلاّ زمناً قليلاً، ولو انكم كنتم تعلمون عاقبة الكفر والعصيان لآمنتم وأطعتم ربكم.

فسؤال الكفار عن مدة لبثهم في الدنيا هو تعريفهم قلة أيام الدنيا وسرعة انقضائها في مقابل أيام الآخرة الخالدة.

ثم يشدد الله التوبيخ على الكافرين لغفلتهم عن الآخرة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنا لا تُرجَعُونَ﴾ أي أظننتم أنما خلقناكم لعباً وباطلاً بلا قصد ولا حكمة وأنكم بعد مماتكم لا تُبعثون أحياء ولا ترجعون إلى الله. كلا إنما خلقناكم لعبادتنا ولنختبركم على أعمالكم لتجزون عنها في الآخرة ﴿فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الحَقُّ﴾ فتقدس الله أن يخلق شيئاً عبثاً فهو مالك الملك كله الذي يحق له الملك لأن كل شيء منه وإليه ﴿لا إِلَه إلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكريم﴾ لا معبود بحقٍّ إلاّ الله رب العرش المحيط بجميع المخلوقات الذي يدبر فيه نظام الكون. ووصف العرش بالكريم لأن الرحمة تتنزل منه والخير والبركة.

ثم يأتي الرد الإلهي على من يعبد إلّهاً آخر مع الله بصيغة التهديد والوعيد:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخر لا بُرْهَانَ لَـهُ بِـهِ﴾ أي ومن يعبد مع الله إلّهاً آخر لا بينة له به ولا حجة فيما يعبده من دون الله سبحانه ﴿فَإِنَّما حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فإنما جزاؤه عند ربه يوم القيامة ﴿إِنَّهُ لا يُفلحُ الكافِرُونَ﴾ إنه لا ينجح أهل الكفر ولا يدركون الخلود في النعيم، وهذا يقابل افتتاح هذه السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وهنا خَتَم بخيبة الكافرين.

ثم يأتي الخطاب لرسول الله ولكل مؤمن في ختام هذه السورة: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْـرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي رب استر ذنوبي بعفوك وارحمني بقبول توبتي وأنت خير من رحم. هذا الختام للسورة ﴿وَأَنت خَيْـرُ الرَّاحِمينَ﴾ رد قاطع على من اتهم الإسلام بأنه يصف الله بالجبروت والقهر فحسب؛ فالله في الإسلام هو ارحم الراحمين بخلقه والرحمة هي المدخل إلى محبة الله، والاطمئنان إلى عدله، والرجوع إليه عند كل نائبة.

من المراجع

جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي
تفسير الكشاف للزمخشري
فتح القدير لمحمد بن علي محمد الشوكاني
تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي
حاشية الصاوي على تفسير الجلالين لأحمد بن محمد الصاوي
تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي
المنتخب في تفسير القرآن ـ وزارة الأوقاف، مصر ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي
تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي
صفوة البيان لمعاني القرآن لحسين مخلوف
صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني
تفسير القاسمي ـ محاسن التأويل ـ لمحمد جمال الدين القاسمي
في ظلال القرآن لسيد قطب
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني
خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار

الفهرس

كلمة الشكر

أقدم شكري وامتناني
لفضيلة الأستاذ الشيخ شريف خليل سكر
وفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حلو
لما قدما لي من معونة وملاحظات قيمة
سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة دينه

المؤلف

كتب للمؤلف:

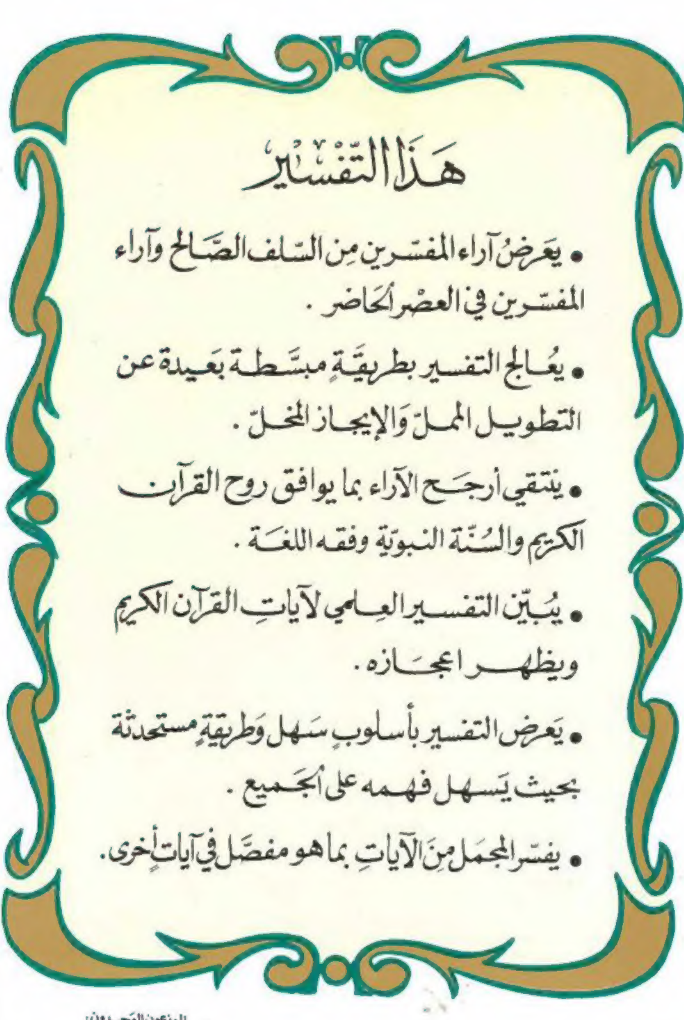
- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية

روح الدين الإسلامي
باللغة الإنكليزية

روح القرآن

صدر منه حتى الآن

- تفسير عمّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء



هـذا التفسير

• يعرض آراء المفسرين من السلف الصالح وآراء المفسرين في العصر الحاضر .

• يعالج التفسير بطريقة مبسطة بعيدة عن التطويل الممل والإيجاز المخل .

• ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنة النبوية وفقه اللغة .

• يبين التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر اعجازه .

• يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع .

• يفسر المجمل من الآيات بما هو مفصل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

بيروت - لبنان - ص.ب ١٠٨٥